الحكومة

النشأة والارتكاز : يذهب الطالع العربي الجديد في اتكاله واعتماده على الحكومة مذهباً خيالياً اقعده عن العمل لنفسه في نفس مقاييس العمل ، وابعده عن فهم الحياة الاجتماعية التي تنبثق عنها القيم الانسانية في حال ينوع فيها الاشراف والظهور فتكون فوق الحكومة ، ويكيف فيها البعث والرسالة فتكون اقدس من النظام ، حالما يعرف انه هو شيء في وظيفته كأنسان، والحكومة شيء آخر في وجودها كوظيفة، وقد يلتقي معنى العمل في الوظيفتين ولكنه يختلف في النتائج !

واذا نحن اخذنا بآراء ارباب الفكر التحريري الذي كان سبباً لظهور معاني القيمة الوجودية ، نجد ان الحكومة لم ترجع في تاريخ نشأتها الى اصل مشكور، كما اشار الى ذلك «كاري» في قوله «ان الحكومة في بدء كيانها قامت على تكتل وضع نظامه جماعة اللصوص» ، وان كان « روسو» يعارضه في هذا الرأي فيزعم انها انبثقت عن مفاعيل التناقض الاجتماعي.

غير ان كارل ماركس ، ينظر اليها نظرة اشتراكية كما نظر اليها افلاطون ، من انها قوة تعطي لمن يشغل وظيفتها « منزلة الرب » على المواطنين في جميع الشؤون السياسية والاقتصادية . والواقع ان شكل الحكومة الحاضرة يمثل هذا الوصف بالتطبيق العملي والنظري الذي اشار اليه افلاطون نفسه ذهاباً مع الحكمة : انظر الى الاشياء كما هي.

ثم يأتي اهل المدرسة المنشستيرية فيقولون ان المجتمع الانساني لم يكن بحاجة الى الحكومة ، بل الى وظيفة بوليس ، كما ان رأي الرئيس الاميركي « جفرسون » جاء مصداقاً لذلك الزعم ، من انه اختبر بنفسه قبائل الهنود في اميركا الشمالية فوجد انها منظمة بحياتها الاجتماعية احسن تنظيم يدعمه هدوء واستقرار واتفاق لانها بدون حكومة .

ارتباط بغير معنى : وعندما نأخذ عمل الحكومة على قياس النفع في الوجه الاجتماعي لا وجه الاستخدام ، نجد في تلخيص الفوائد والمنافع ان الفرد الصالح اقدر في نفع المجتمع من الحكومة لانها انما كسبت مادتها جبراً من الفرد، وعلى المصدر الحقيقي يبنى كيان النفع العام .

وقد اشار العلامة الالماني « فرانز اوبنهيمر » الى معنى وجود الحكومة بقوله « ان غاية النظام الحكومي ليست من اجل تحري وجه الحق بل من اجل تنافس فردي يؤدي الى نفع خاص » .

ويؤكد السياسي الانكليزي الخطيب المشهور « جان برايت » القرن الثامن عشر ، ان نفع الحكومة لا يعتمد النفع ، حيث قال « انا اعلم ان البرلمان الانكليزي انما وجد للقيام بعمل صالح ، ولكنني لا اعلم ابداً انه اتى بشيء صالح لمجرد انه شيء صالح » .

الشكل والفعل الخفي : هذا هو الرأي العلمي في الحكومة ! اما الرأي السياسي او رأي الحكومة في نفسها ، فهو انها تجرد نفسها —في عملها— عن كل صفة مثالية، بينما تقوم في اسمها وفعلها على ثلاث صفات : الخدعة السياسية «Coup D'Etat» الانقلاب المفاجيء، « Coup De Main » الحق او الضربة القاضية « Coup De Grâce ».

ومن اجل ذلك يرى الدكتور الاميركي « اشلي مانتاجو » العالم في الطبيعيات والانساب، ان الجمعية الانسانية لم تكن بحاجة الى حكومة واستقلال من النوع الحاضر ، لان ذلك انما يوجد الخوف والاضطراب ، بل هي بحاجة الى رجال يعرفون محبة الحق ، يصير تبديلهم برجال اساءوا القيادة في قيادة اهل الحق .

وعنده ان الانسانية تسير الى الهلاك اذا بقي على رأسها جماعة اشار اليهم بأبسطها في الكلمات من تعبير —انهم مرضى— !

ايها الجيل العربي !! انك تظلم نفسك وتظلم الحكومة عندما تسرف في الاعتماد والركون اليها هذا الاسراف .

ميشغن — الولايات المتحدة
عبدالله بدوي

الفلسفة ازاء العلم والدين والفن

بقلم منوال يونس

◆

تطوي معرفة الكون (*) على اجزاء عديدة متنوعة ومؤلفة من مختلف العلوم الطبيعية والنفسانية وبما ان جميع هذه العلوم تتمنطق ضمن دائرة المعرفة فقد اعتبرت بادىء ذي بدء ككل اطلق عليه اسم « الفلسفة » ومع مرور الزمن بدأت تتقلص تلك العلوم عن هذا الكل، علم تلو الآخر حتى توصل بعض المفكرين الى الاعتقاد بانما يعني بالكلمة الدالة على هذا الكل اي الفلسفة ستصبح يوماً تعبيراً فارغاً لا هدف لها . لم يكن هذا مصير الفلسفة ووظيفتها بل رأينا كيف انها بواسطة شخصيات هامة كديكارت و كانت وهيغل وهربرت وشوبنهور ونيدلبند ودلتي الخ . اكتسبت اوصافاً وميزات بارزة جديدة تفوق اوصافها وميزاتها السابقة ، حتى اصبح البعض يعرفونها « كعلم العلوم » و« قاعدة القواعد » .

هكذا ندرك كيف انه منذ ان بدأت تستقل العلوم الطبيعية في مدرسة ارسطاطليس الى ان تتابع هذا الاستقلال في الايام الحديثة والمعاصرة في مضمار سائر العلوم الطبيعية والنفسانية، شرعت الفلسفة بالقيام بدور هام في تنظيم الفكر المتحرك في شتى الحقول العلمية على اختلافها . وقد رأينا ايضاً كيف ان هذه العلوم رغم استقلالها الظاهر ، بقيت متصلة اتصالا وثيقاً بالفلسفة . فبواسطة « النظرة الفلسفية الشاملة الى الكون » يكتسب الفكر الايجابي تطوراً وكمالا كبيرين بفعل علاقته الداخلية بالحياة وبفعل الاختبارات النفسية والانظمة العملية التي ترتكز عليها تصرفاتنا . وهكذا عندما يتحرك الفكر في عالم العلوم المختلفة يكون قد اكتسب بواسطة الفلسفة المرونة والقوة اللازمتين للتصرف بسهولة ودقة ووضوح .

تتشعب العلوم وتتعمق بصورة منفردة في شتى خصائص الكون والحياة ، وعليها ان تجيب على دوافع معينة اي ان تعالج كل فرع من فروع المعرفة بمفرده ، ولكن عندما ترجع هذه المعرفة الى ذاتها لكي تتحقق من صحة تصرفها وواقعيته ، عندئذ تدخل في دائرة الفلسفة ، متجاوزة امكانيات العلوم وحدودها . وهكذا تنتقل هذه المعرفة من دراسة الاجزاء التي تؤلف الكل (اي الكون والحياة) الى دراسة روح الكائنات التي يقوم عليها هذا الكل بكامله .

ورغم ان العلوم تسعى كما تسعى الفلسفة الى الحصول على معرفة ايجابية ذات صحة عالمية . فالفلسفة تحتفظ بميزات هامة جداً اذ انها على خلاف هذه، تتجه نحو التعميم الكلي الشامل اي انها تسعى الى ادراك سر الكون والحياة ادراكاً شاملاً تاماً . ففي العلوم ينحصر التنقيب والجهد ضمن دائرة فرع من فروع المعرفة بينما الفلسفة تتجاوز هذه الحدود الفرعية متخذة لذاتها ميزات المعرفة في كلا نوعيها اي المعرفة الايجابية ذات صحة عالمية والمعرفة الكلية الشاملة العامة .

تنشأ العلاقة بين الفلسفة وبين مختلف فروع المعرفة في النظرة « الفلسفية الشاملة الى الكون »، ومن جراء هذه العلاقة تنشأ مهمة الفلسفة في تأسيس هذه الفروع وفي ايجاد العلاقاف ما بينها . ويمكننا ان نعتبر العلوم الخاصة كالنقطة التي يصعد منها الفكر الى دائرة الفلسفة ، وازاء هذه الحالة يصبح من المنطقي ان يعود هذا الفكر الى تلك النقطة كي يمتن اساسها وينظم مقوماتها . وعلاوة على ذلك يمكننا ايضاً ان نعتبر ان للفكر الحق الاول في انشاء العلاقات بين فروع المعرفة بها . ان مهمة الفلسفة تنشأ في التوازن القائم بين هذه الفروع . وهكذا تنزع الفلسفة الى الحصول على معرفة ذات صحة عالمية .

يجب ان نشير الى ان الفلسفة تحتوي على جميع الخصائص التي تجعل منها علماً مستكملاً حتى ان دلتي اطلق عليها اسم « نظرية المعرفة »، وهذا عندما تقيم التفاعل بين ادراكنا الخارجي والاحساسات والانطباعات من جهة وبين عالم معرفتنا من جهة اخرى . وبواسطة المنطق تتدخل الفلسفة حتى في تكوين وتنظيم كل عملية صحيحة

(*) المراجع : « روح الفلسفة » لدلتي Dilthey . « نقطة البداءة في التفلسف » لفرونديسي Frondizi .

من عملياتنا الفكرية ، وفي درس اساليب كل من هذه العمليات وفي وصل الاعتبارات الناجمة عنها . وهي تصحح الفرضيات كما انها تتحرى الحدود والاهداف في كل علم خاص، وفي النهاية ، تأخذ كل هذه النتائج الى « حقل التركيب الداخلي وعلاقة مجموعات العلوم ما بينها ».

بواسطة الاختبار ومع مرور الزمن يكون المرء فكرة واضحة عن كل ما يمكنه اعتباره في البداءة كحدث طارىء بسيط اوسلبي في مجرى امور حياته ، فهذا الاختبار ينمو ويتزن عندما يصبح جزءاً من الاختبار الاجتماعي الاوسع. هذا النوع الاخير من الاختبار يكشف الستار عن القيم المتمنطقة في الاختبارات الفردية ويعين حدودها وقواعدها .

ازاء الدين

اله

من المهم جداً في موضوعنا هذا ان نلاحظ كيف ان الفلسفة رغم كونها تماثل الدين والشعر بنزوعها نحو الحصول على طابع شامل عام ،فهي تحتفظ على خلافها بخاصة بينة اي الصحة الكلية الثابتة (وهذا عكس ما يجري بين الفلسفة والعلم). يبرز هذا الرأي في « النظرة الدينية الى الكون » اذ ان الدين بانصرافه الى ان تكوين نظرة دينية شاملة عن الكون ، قائمة على علاقة « بالغير منظور » والى التعمق بتطور العالم ضمن دائرة هذه النظرة والعوامل الاخرى كالعلاقات الدينية بين الناس ،والكل الروحي وراء الجزئيات، والشعوذة في مختلف مراحلها ،الخ ، اجل ان الدين بانصرافه هذا يكشف لنا عن نزوعه الكلي نحو التصميم الاوسع.

ان الملقن المقفل (Dogme) و« الغير منظور » (invisible) يبعداننا عن حقل الفهم والواقع ،اي الحقل الذي تعمل فيه الفلسفة كي تقيم العلاقات بين الفكر والكون على اسس منظمة وصحيحة في كل ظرف ومكان، وهي تنفرد بهذا الدور الهام الذي يشكل خاصة ظاهرة من خصائصها ازاء الدين .

واما في مجرى العلاقات بين الفلسفة والدين يبرز وقت يندمج به الدين بالفلسفة،ويكفي ان ننظر فلسفياً في الدين في ملء معناه، حتى نرى كيف ان الطريقة لاكتشاف العلائق الالهية بين الاشياء لا تختلف عن التفسير المتعلق باسباب التكوين الاولية . وقد لوحظ خلال فترة طويلة من الزمن ان « التفكير المتافيزيائي » تكيف وانطبق تماماً على ذلك التفسير المتعلق باسباب التكوين الاولية وفي هذه الاتجاه تنتهي النظرة الدينية الى الكون في عالم الفلسفة العامة .

ازاء الفن

اله

اهتمام الفلسفه في الحصول على معرفة ذات صحة عالمية وفي التنقل ضمن دائرة الواقع وفي تطور الفكر العلمي وايصاله بمقومات الحياة، يختلف كل الاختلاف عن اهتمام الفن، الذي يقوم على الآونة التي يلمس بها مضمونه الحي . وهذا المضمون الملموس هو معنى الفن بذاته ، سواء اكان في ساعة الابداع ام في ساعة التحسس ثانية بهذا الابداع .

وقد يتجاوز الشعر حدود هذا التعريف لما فيه من فيض الكلام والتعابير ، وهذا مما يمكنه ظاهراً من الانتماء الى دائرة الواقع والافكار ولكن دون ان يفترق في النهاية عن سائر الفنون .

وكل حدث فني ينطوي على معنى، وبالرغم من ان هذا المعنى لا يأتي سوى كامن فانه سهل اللمس والاستيعاب كواقع واضح ينبض في نفوس الذين يتحسسون به كما ينبض بذاته في روح المبدع في طور الابداع . يحدث ذلك دون ان يكون للارادة اي اثر في حدوثه ودون ان يتمكن الواقع من التدخل في مجراه، حتى انه يستطيع ان يطوف بالنفس في عالم من الوهم والخيال . وفي هذه الحالة يمكننا التساؤل عن العلاقة الواقعة بين تحسس المبدع وتحسس المطلع على الابداع . .

لا شك في ان المعنى الذي ينطوي عليه كل انتاج فني هو شيء يختبره المبدع في نفسه وفي نفوس الآخرين . وان ادراك هذا المعنى اي التحسس به يقوم على الاتجاه نحو معرفة مقومات الحياة، او بتعبير آخر نحو تكوين فكرة شاملة عن الكون . في هذه النقطة تنشأ العلاقة بين الفن والفلسفة : فلا يتحقق ادراك معنى قطعة شعرية ام فنية الا بالانصراف الكلي الى النظر في اعمق مناهلها، واما الفلسفة فهي لا تحلل الحدس المبدع فحسب ، بل وبصورة خاصة تفرق بطريقة علمية بين مختلف اساليب التصرف والاتجاه .

لقد توضح كيف ان الانتاج الفني يجري في نفوسنا دون ان يكون لارادتنا اي اثر في مجراه ودون ان يكون له علاقة بمصالحنا، ولكنه يحدث فينا حالات نفسية ذات علاقة باختبارنا في الكون والحياة، مما يستوجب تدخل الفلسفة التي من شأنها ان تنظم فينا هذه الحالات والاختبارات وان تطورها وتهذبها . وقد ذكر دلتي كثيراً من الامثلة في هذا الصدد منها قوله في ان الشعر هيأ ولادة الفلسفة في اليونان وتجديدها في مرحلة النهضة بعد القرون الوسطى، ولكن رغم اثر الشعر في الفلسفة على الشكل المذكور، فهو لا يستطيع ان يكون فكرة صحيحة عن الحياة الا بواسطة الفلسفة فقط .

منوال يونس
معهد الفلسفة والآداب في كراكس - فنزويلا

للشاعر شارل بودلير

ترجمة مختار الكبالي

اريج غريب

عندما ، اغمض عيني في ليلة خريفية دافئة ،
استنشق رائحة نهدك الحار ،
تنبسط امامي شواطىء سعيدة
تؤلقها نيران شمس رتيبة ،

وتبدو لي جزيرة كسلى أضفت عليها الطبيعة
اشجاراً فريدة وفواكه لذيذة ،
ونساء يشدهن بأعينهن الصريحة .

وأهتدي بعبقك الى اقاليم فاتنة ،
فأرى مرفأ يغص بصوار واشرعة
ما برحت من موج البحر متعبة ،

بينما اريج اشجار التمر الهندي الخضراء ،
ينتشر في الهواء فيملأ منخري
ويمتزج هو ، واناشيد البحارة بروحي

عينا برت

باستطاعتكما ان تحتقرا اكثر العيون شهرة
يا عيني بنيتي الجميلتين اللتين يرشح منهما ويهرب
ما لا استطيع وصفه من عذوبة وجمال كالليل
ايتها العينان الجميلتان اسكبا علي ظلمتكما الفاتنة .

يا عيني بنيتي الواسعتين ، ايتها الالغاز المعبودة
انكما تشبهان كثيراً هذه الكهوف السحرية
حيث وراء اكداس الاشباح الراقدة
تومض بغموض كنوز مجهولة !

بنيتي لها عينان داجيتان عميقتان واسعتان
مثلك ايها الليل الشاسع مثلك مضاءتان .
نيرانهما خواطر حب يمزجها الايمان
تشعان من الاعماق . شهوانيتان او طاهرتان !

ازمة الفتاة العراقية

الفتاة العراقية اليوم، تعاني، في عميق اغوارها، وفي سويداء مشاعرها، صراعاً لاهباً، فيه كل ما في الثورة من عنف ونقمة، وفيه كل ما في النار من ضرام ودخان، وفيه، في نهاية سلاله، كل ما في الانفعال من كبوات وعثرات!

ولعل هذا الصراع الخفي، العميق، الشائك، اخطر صراع تتخبط في دياجيره المحلولكة الوعرة الفتاة العراقية.. وقد تخرج منه، من هذا الصراع، وهي تحمل في نفسها، في مطلع شخصيتها، وقرارة اغوارها، آثاره الواخزة، من جراح تعض، وآمال تنتحب، ونزعات تتواثب تأكل في الاحشاء أكل النار في قبضة من الهشيم.. وقد تخرج منه وهي تشهر في الوجوه، في وجه الدنيا!، وجهاً غاضت انوثته، وضاعت قدسيته، فيروح يحترق في انفلات النيران، ويختنق في عنفوان النزوات..!

الفتاة العراقية تضطرب على فم مفغور كما يضطرب الفراش على وهج النار، فقد دخلت دور العلم، فتفتحت في اعماقها، وفي نفسها، وفي ذهنها، كوى المعرفة، ومسارب الحياة، فراحت تعب في نهم، يتسعر بالنهم، من الينابيع المتفجرة نوراً، فتبدد الظلام، وانقشعت الحلكة، التي جثمت على صدرها أعلى قلبها، وعشعشت في رأسها، في فكرها، واخذت من انسانيتها، من نبلها، من ابائه وكبريائه، كثيراً... كثيراً!

لقد وجدت الفتاة العراقية في العلم طريقاً ممهداً يفتح في صدره سبلاً للتحرر والانعتاق، ولكنها وجدت كذلك على جانبيه اكداساً ضخمة سوداء من القيود والسدود، تنتصب في جبروت الطغاة، وتنظر في شراسة الضواري، وتتحفز وتتاهب على مخالب ظمأى دائماً الى الدماء.. وجدت المجتمع القاسي، المتحجر، الجاهل، الظالم المتعصب، لا يزال يجلس، في كبرياء اجوف، على كرسي الصدارة، يرسم الحدود، ويقيم السدود، ويضع القيم والمفاهيم. فاذا هي هي.. واذا هي لا تزال انثى لا غير.. انثى احط في كل شيء من الذكر.. انثى مكانها، هناك، في الزاوية، حيث السرير، تقاد اليه، كما تقاد النعاج الضعيفة الى ارصفة المجازر!

ومن هنا.. من تفتح الفتاة، تفتح بصيرتها وبصرها، لفيض النور والمعرفة، وانعتاقها من ربقة الجهل الخانق والحلكة القاتلة.

من هذا التحرر ينقدح على صخرة المجتمع الصلد الجامد ينبثق ذلك الصراع الخفي العميق، فتنصهر فيه، في اتونه، ثم تخرج منه على صورة اخرى، صورة قد يستبد بها القنوط غالباً فتبدو كئيبة حزينة، وقد يستولي عليها الضلال فتبدو شائهة ممسوخة!

المدرسة اليوم تقدم، على يديها الخيرتين، العلم والمعرفة، غذاء للقلب والنفس لتتحرر، وتتبصر، وتتعقل، وتدرك.. والبيت، في جموده، وتعصبه، وحذره، وخوفه، يضغط، ويوقف، ويحكم، ويأمر. وعلى طاقة هذين القطبين، قوة او ضعفاً، يتجه ذلك الصراع، نفعاً او ضرراً!

واخطر الخطر ان يبلغ هذان القطبان عنفوان قوتهما، واوج جبروتهما، فتضطرم الفتاة بينهما كالنار المدوية المجنونة، ثم تنفلت، في الثبات، الى طريق.. لا شك في انه يكون على قسط كبير من الخطورة!

هذه هي الازمة التي يعانيها الجيل النسائي الجديد في العراق. ولست ادري الى اين سينتهي المسير! الى خير ام الى شر؟. فالازمة ازمة امة، وازمة تتشابك تشابكاً محكماً مع خطوط المستقبل، وعلى نتائجها تتوقف السمات التي سيحملها المجتمع في خطواته المقبلة خلال الآماد.

على ان الارتماء، والاسترخاء، في لجج التشاؤم امر فيه تطرف جد بعيد.. فالفتاة العراقية تسير، ولا شك، الا انها تسير على بطء فيه حذر، وقد برهنت كثيراً على قابليتها للتقدم والنهوض، دون ان تثير حولها، لا في نفسها، الضجة والضوضاء.. كما اثبت المجتمع على قابليته لتقبل هذا السير الوئيد، ليس في هذا الشأن فقط بل في كافة شؤون الحياة، لانه لا يزال محافظاً يخشى الجديد ويتوجس خيفة منه.. وليست اوضاع المرأة عندنا الا وجهاً بشعاً من وجوه الجمود الكبير الذي يخيم على المجتمع العربي.. وليس يجدي المرأة علاج خاص بها ينقذها مما تعانيه من ارهاق وتعنت واضطهاد.. فالمحنة اوسع وأعم من محنة مجتمع مبتلى بجشد من الامراض والاوباء تأكل في كل اعضائه، وليست محنة فئة من فئاته..!

بغداد

سوسن عبدالله

توماس كمبانيلا المفكر الثائر

بقلم
قدري قلعجي

☆

كانت ايطاليا ، بنت اليونان القديمة ، من اخصب البلدان بالعباقرة الافذاذ والمفكرين الاحرار ، والعلماء النابغين وما أكثر ما اعطت العالم ، في اشد العهود ظلاماً وطغياناً ، مشاعل ساطعة تبدد الظلمات وتهدي الى الطريق .

من هؤلاء الاعلام الخالدين توماس كمبانيلا الذي سبق رجال الانسكلوبيديا وجمهوريي القرن الثامن عشر بقرنين كاملين ، وكان اباً فكرياً لهم . .

ولد سنة ١٥٦٨ في قرية ستنيانو ، من اسرة فقيرة ، وبدت عليه امارات النباهة مبكرة ، فما كاد يبلغ سن الثالثة عشرة حتى كان يتقن عدة لغات ، وحتى ادهش معلميه بمواهبه الرياضية والادبية في آن واحد . وقد اعجب منذ صغره بتوما الاكويني والبير لوغران وكلاهما من اعلام الدومينيكان ، وبلغ من اعجابه هذا انه دفعه للدخول الى دير ستيلو ليكون كاهناً من كهنة هذه الطائفة ، اقتداء بهما واقتفاء لخطاهما .

وكان اليسوعيون والدومينيكانيون حينئذ على خلاف وتنافس ، فاثار نبوغ كمبانيلا اهتمام هؤلاء ، وارادوا ان يجعلوا منه شخصية دينية كبيرة يضعونها في وجه خصومهم ، فوجدوا لديه اعظم استعداد لتلقي المعارف وبحث المسائل المعقدة ، فهو نهم الى المطالعة والدراسة ، يقول ان جميع الكتب التي في العالم لا تشبع نهمه هذا ، انه يلتهم كل كتاب يقع عليه ، ومع ذلك فهو لا يفتأ يشكو الجوع . . وكلما عرف شيئاً من اسرار الحياة ، ادرك ان ما يجهله من هذه الاسرار اكثر جداً .

وما لبثت هذه المطالعة البصيرة المستمرة ، ان جعلته يتجه الى دراسة الطبيعة ، موقناً بانها تستطيع ان تقدم لفكره النقاد البعيد الغور ، غذاء ، لا ينفد .

وكانت دراسته في دير ستيلو قد انتهت ، فأرسلته عمدة الدير الى سان جيورجيو ، واتيح له هناك ان يشترك في مناقشة علنية لدى آباء الفرنسيسكان ، فتغلب على شيخ من شيوخهم البارزين ، وكذلك كان شأنه في كل مناقشة اشترك فيها . لقد كان رجلاً من طراز جديد ، لا يريد ان يقف الفكر البشري امام حد اوقيد ، غير الحدود الطبيعية ، اي تجربة الاشياء ، وتفسيرها بوحي هذه التجربة نفسها .

وطاف ايطاليا كلها بهذه الروح ، دارساً ، منقباً ، مطلعاً على كل جديد ، مناقشاً كل من يخالفه في الرأي ، وعاد الى ستيلو في سن الثلاثين ، وفي ذهنه صورة مؤثرة لشقاء مواطنيه . لقد رأى ان الحكومة الاسبانية تسحق بلاده بطغيانها ، وان فئة كبيرة من رجال الدين ، لا تؤمن بما تبشر به ، قد باعت نفسها لفيليب الثالث وتطوعت لتأييد ظلمه وتثبيت النير الاسباني على الشعوب التي ارهقها وأذلها .

تفطر قلب كمبانيلا لهذا المشهد المفجع ، وأخذ على نفسه ان يناضل لتحرير وطنه ، وتمثل له سافو نارولا وجيوردانو برونو ، اللذين نشأا مثله في دير ، واللذين سيكافح مثلهما لنشر الحرية ، ولم ترهبه الآلام التي عانياها في هذا الكفاح فان عليه واجباً نحو اخوته في الوطن وفي العالم ، وهو سيؤديه مهما كابد في هذا السبيل .

واحس المفكر بان قواه قد تضاعفت ، مذ وضع نصب عينيه هذه المهمة العظيمة ، وفكر في الخطة التي ينبغي له ان يسلكها .

لسوف يعمل على تثقيف الشعب واطلاعه على ما له من حق الحياة ، ودعوته الى الكفاح الدامي لاقامة انظمة جديدة تكفل له الحرية والسعادة ، وصيانة هذه الانظمة من عدوان الطغاة . فهو لم يفهم المسيحية التي حاربت الطغيان والفساد ، مثلما فهمها بعض الذين يدعون الشعوب الشقية الى الخضوع المطلق والعبودية العمياء ، بل فهمها على انها حرب دائمة على الطغيان والفساد

وكانت ولاية كالابر الايطالية ترزح تحت نير الضرائب ، والحكومة الاسبانية تزج في السجن كل من يرفع صوته بالشكوى منها ، فأخذ كمبانيلا يطوف انحاء المقاطعة مثيراً اهلها على الاستعمار الاسباني ، والناس يصغون اليه ويستقبلون دعوته بحماسة دينية . وكان من المتحمسين له والمتلمذين عليه ، الاب دنيس بونتيو فطفق يدعو الى التمرد في انحاء البلاد ، ويسمي استاذه كمبانيلا رسول العناية الالهية ، مهيباً بالمواطنين الى الثورة على وزراء ملك اسبانيا الذين يبيعون الدم البشري بالمال ويستبدون بالفقراء والمستضعفين .

وهبت تلك الفئة من رجال الدين التي كان كمبانيلا والاب بونتيو وانصارهما يحاربونها لوقوفها الى جانب الاستعمار والاستبداد ، تقاومهم مقاومة شديدة ، متناسية ما بينها من خلافات طائفية وخصومات مذهبية

متحدة في صدر هذا الخطر المتعاظم الذي كان ينشر في البلاد روح التمرد والتحرر .

ولكن انصار كمبانيلا كانوا يتكاثرون يوماً بعد آخر ، وقد انضم اليهم نفر من كبار الاساقفة ، وأخذوا يدبرون مع جماهير الشعب انقلاباً واسعاً يحرر البلاد من الاستعمار الاسباني ، ويقيم شرعة انسانية فيها ، وكاد هذا الانقلاب يتم حقاً لولا ان ايطاليين خائنين قد حذرا السلطة الاسبانية منه واطلعاها على خططه واهدافه ، فأرسل الكونت دوليموس نائب الملك في نابولي جيشاً كبيراً الى مقاطعة كالابر بقيادة الشفالية سبينيلي ، فوطد الارهاب السائد فيها ، واعتقل كل من خيل اليه انه من رجال المقاومة ، وعذب المعتقلين عذاباً شديداً .

وكان سبينيلي على يقين بأن كمبانيلا هو الروح المحركة لهذه الثورة على الاستعمار الاسباني ، ومنظم المؤامرة عليه ، فأرسل امراً الى رجال الامن في جميع انحاء البلاد للبحث عنه والقبض عليه . . فهرب الثائر ولحق به ابو الشيخ ، فاجتازا المجاهل وكابدا المشقات حتى بلغا شاطىء رونسيلا المقابل لشواطىء صقلية ، مجهدين منهوكي القوى ، ولم يعد بينهما وبين الامن والحرية غير اجتياز المضيق الذي يفصل بينهما وبين شواطىء صقلية ، ولكنهما لم يكونا يملكان أجر قارب ينقلهما الى هناك . وقد شاهدا قارباً صغيراً فناشدا صاحبه ان ينقلهما دون أجر فضحك منهما ومضى دهشاً لمنطقهما . .

وحار الرجلان فيما يصنعان ، فان رجال السلطة الاسبانية الذين يبحثون عنهما في كل مكان ، لن يبطئوا حتى يجدوهما ويقبضوا عليهما . فهل يلقيان بنفسيهما في الماء ، مستسلمين لرحمة الامواج ؟ ولكن لا ريب في انهما سيقضيان تعباً وجوعاً قبل ان يبلغا شاطىء الامان !

خبأ الاب ابنه في كوخ احد الصيادين ، وانطلق يبحث عن قارب آخر يكون صاحبه اكثر رحمة وحناناً وخالجت ذلك الصياد الذي اختبأ كمبانيلا في كوخه ، ريبة في امره ، فمضى الى فابريزيو حاكم رونسيلا ووشى به ، رجاء الحصول على قليل من المال مكافأة له على جريمته . . فبادر كارافا الى القبض على الثائر الهارب ، وارسله الى سبينيلي مكبلاً بالحديد ، ولم ينس مكافأة الواشي المجرم بقليل من المال ، اما هو فقد رفعه فيليب الثالث الى مرتبة امير .

نقل كمبانيلا الى نابولي ، وسجن في قصراوف ، واستجوب سبع مرات ، ولكن عبثاً حاول رجال التحقيق ان ينتزعوا منه اسم شخص واحد من انصاره والمتآمرين معه ، بالعذاب الرهيب ، فقد عانى الثائر من الوان التعذيب هولا هائلاً ، وكاد يقضي عليه غير مرة ، ولكنه لم يفش سرا ولم يتخاذل قط .

وقد وصف كمبانيلا بنفسه ما لاقاه من العذاب فقال :

« لقد عذبت سبع مرات بقسوة ووحشية لا حد لها . وقد دام تعذيبي في المرة الاخيرة اربعين ساعة . وكنت مشدود الوثاق بحبال تضغط على لحمي وتبلغ العظام معلقاً فوق قطعة من الخشب المسنن تغرز في جسدي وتمزق لحمي كلما تحرك الحبل . وقد نزف من دمي مقدار كبير جداً . وفي الساعة الاربعين خيل للجلادين اني مت فكفوا عن تعذيبي .



كمبانيلا يرجو صاحب المركب

واثناء التعذيب كان بعضهم يعمد الى اهانتي ، ويعمد آخرون الى هز الحبل الذي كنت معلقاً به ، ولكنهم لم يستطيعوا ارهابي وانتزاع كلمة واحدة من شفتي . وحين شفيت من آلامي ، باعجوبة ، بعد ستة اشهر ، وضعوني في حفرة . .

وقد حوكمت خمس عشرة مرة ، وقيل لي في المرة الاولى : « كيف تعلم اشياء لم تتلقنها ؟ هل هنالك شيطان يخدمك ؟ » فاجبت : « لقد احرق مصباحي من الزيت ، حتى تعلمت ما تعلمت اكثر مما شربتم من خمرة . . » واتهمت في مرة اخرى بأني مؤلف كتاب « المحتالون الثلاثة » الذي طبع قبل مولدي بثلاثين سنة ! ونسبوا الي اني ابشر بتعاليم ديموكريت انا الذي الفت كتباً في نقض هذه

التعاليم ... وقد انتهوا باتهامي بالهرطقة والقائي في حفرة لا يدخلها الهواء ولا النور .»

وفي اعماق السجن ، وصف كبانيلا شعراً، استشهاده الطويل، ومما نظمه هناك قوله :

« منذ اثني عشر عاماً وانا أتعذب ،
وأشعر الالم حولي .
لقد استشهدت أعضائي سبع مرات ..
ان الجهال قد لعنوني واحتقروني
وحرمت عيناي نور الشمس .
لقد انتهك جسدي وتمزق، وتحطمت عظامي
اني ارقد على صخر ،
تشدني سلسلة الى الجدار ،
جدار سجني المثلج .
لقد نزفت من دمي أمواج ،
وطعامي قليل وفاسد ،
فهلا يكفيني يا الهي ، ما أملت
بانك ستدفع الشر عني ؟
ان الطغاة يجعلون من اجسادنا موطناً لنعالهم،
ومن دمائنا شراباً لهم ،
ومن لحمنا غذاء لقسوتهم ،
وبآلامنا ودموعنا يلهون ويلعبون .
لقد جعلوا من نفوسنا طيوراً سجينة ،
ومن عظامنا قبضات لخناجرهم،
ومن أعضائنا الممزقة ، الدامية ، المختلجة،
يخلقون شهود الزور ،
الذين يتهموننا تحت وطأة العذاب ،
ونحن ابرياء .
ان هؤلاء الطغاة، يا الهي،
يريدون منا ان نشتم الفضيلة ،
ونطري رذائلهم ،
وأنت ، في محكمتك العليا ،
ترى هذا خيراً مني ،
فهلا عالجت يا الهي هذا الشقاء العام ،
فان العناية يجب ان ترحم بنيها ! »

لقد أتعب كبانيلا جلاديه ، وانتصر على العذاب ، فالقي في الزندان ، نجي الوحدة والوحشة ، ولعل غيره كان حرياً بان ينوء تحت هذه الآلام ، ولكن كبانيلا كان فيلسوفاً وشاعراً ، فملأ فراغ سجنه بعالم من ابداع مخيلته، ولم ينشد من جلاديه رحمة ولا عفواً .. كل ما كان ينشده منهم، ان يمنحوه كتباً وورقاً وأقلاماً، فهو يريد ان يقرأ ، وهو في حاجة الى تسجيل مشاعره وخواطره، وقد ظل الشعر وقتاً طويلاً اداته المفضلة للتعبير عن هذه الخواطر والمشاعر، واليك بعض القصائد التي نظمها في سجنه :

أنا

أنا حر ومكبل بالحديد ،
وحيد واست وحيداً ،
صاخب ووديع ،
مجنون في رأي البلهاء ،
وعاقل في رأي الفكر الحكيم .
اضطهد على الارض ، فاحلق في السماء ،
جسدي منهوك ونفسي مشرقة ،
وحين يقعدني الشقاء ، ويهبط بي ،
ترفعني أجنحة الفكر فوق هذا العالم .
ان الصراع ينمي الشجاعة ،
وكل زمن ليقصر أمام الابدية ،
وما من لذة الا وهي وقتية .
ان على جبيني صورة،
هي محبة الحقيقة ،
وانا موقن باني سأصل يوماً ،
الى حيث أفهم ، دون ان أتكلم .

الى جميع الامم

يا سكان العالم ..
ولوا وجوهكم شطر الفكر الاسمى ،
لتروا الى اي انحطاط ، أحالكم الظلم ،
الظلم المتشح بوشاح النبل والرفعة .
ثم انظروا الى شراك الرياء ،
هذا الرياء الذي أصبح عبادة مقدسة،
واحتل مكان السفسطة ، عدوة العقل ..
العقل الذي أضعه في أعلى مكان .
لقد جاء سقراط لمحاربة السفسطة ،
وكاتون الصالح لمحاربة الطغاة ،
ولمحاربة الرياء جاء المسيح ، مشعل السماء .

الى الشعراء

ان الشعر الخليق بالاعجاب ،
هو شعر لا يملأ التاريخ بالاكاذيب ،
بل يهيب بالشعوب المستعبدة
الى مقاومة الظلم والطغيان .

ثروة الحكيم

الا ما أعظم المعرفة من ثروة ،
انها لثروة أضخم من الغنى .
وليس بضائر حكيماً ،
أن يولد من اسرة فقيرة ،
ما دام مقدر له ان يرفعها الى ذروة المجد .

حب الحقيقة

يشعر العاشق الصادق ..
بقوة جديدة على الدوام ،
تعمر قلبه وتملأ نفسه ،
لان صورة المعشوق تلازم خياله
والجمال الرائع يسكن روحه ،
فلا يتراجع أمام خطر
ويستهين بكل عذاب !

الذين يحكمون

ليس الذين يحكمون هم الملوك الحقيقيون،
بل هم اولئك الذين يستطيعون ان يحكموا،
وأن يكونوا في وقت واحد :
المسيح وبالاس ومارس ..
الطيبة والحكمة والقوة ،
وان كانوا لقطاء !
ان الملوك لا يولدون وعلى رؤوسهم تيجان،
وانما يولدون بشراً ، لا أكثر ولا أقل !

وبينما كان كمبانيلا يعاني سوء العذاب، في احد اقبية قصر اوف لانه اراد ان يحطم قيود مواطنيه، ويمتعهم بالحرية والسعادة، كان جيورادنو برونو شهيد العقل، يحرق حياً في احدى ساحات روما.

ولم يقتصر كمبانيلا في سجنه على نظم الشعر، فقد عقبت قصائده الشاكية المؤثرة التي تمتزج فيها العاطفة الدينية بالعاطفة الثورية، دراسات هامة، فأرسل الى الكونت دوليموس نائب الملك في نابولي تقريراً مسهباً عما تعانيه مقاطعة كالابر من جراح لمسها بنفسه، ووصف له طرق العلاج التي تخفف من آلام هذه الجراح او تشفي قسماً منها. ووضع كتاباً بعنوان « الالحاد الخاسر » حاول ان يثبت فيه وجود الكائن الاسمى، وحذر من اتباع التعاليم التي اودعها ميكافيل في كتابه « الامير ».

بيد ان احسن كتاب الفه كمبانيلا في السجن، بل في حياته كلها، هو كتابه « مدينة الشمس » الذي انشأه على غرار جمهورية افلاطون، وتصور فيه وجود جمهورية جديدة توفر لابنائها الحرية والسعادة، ووضع لهذه الجمهورية السعيدة انظمة عدة تتناول مختلف نواحي الحياة.

وواضح ان « مدينة الشمس » ضرب من الاشتراكية الطوباوية، التي تعتمد على الخيال والرغبة في بناء مجتمع صالح على اسس جديدة تكفل للناس الحرية والعدالة والمساواة، لا على الدراسة العلمية ومسايرة قوانين تطور المجتمع نفسه، ولكن اهمية هذا الكتاب، بالرغم من ذلك، كبيرة جداً في العصر الذي وضع فيه.

وقد تأثر بهذا الكتاب جميع المصلحين الذين جاءوا من بعد كمبانيلا وفكروا في انقاذ مجتمعاتهم مما تعانيه من ظلم وتفاوت، وفي طليعتهم سان سيمون وفوريه، بل من الممكن القول بان روسو نفسه قد تأثر به الى حد كبير في كتابه « العقد الاجتماعي ».

لقد اثار كمبانيلا ما يراه من تفاوت الناس على الارض، وشقاء الاكثرية منهم لمصلحة الاقلية ذات الامتيازات، فتخيل تلك المدينة الفاضلة، « مدينة الشمس »، التي يعيش فيها الناس سعداء، لكل منهم حقوق وواجبات، لا تتعارض مع حقوق الآخرين وواجباتهم بل تنسجم معها كل الانسجام. وهو حلم رائع تمخضت بمثله مخيلات الفلاسفة والمصلحين في جميع العصور، وان اختلفت طرقهم في الدعوة الى تحقيقه، وفي وضع اسسه، المستمدة من العلم او المستمدة من الخيال، ولكنه كان على كل حال حلماً عظيما نبيلا، خصب المستقبل، يتطور بتطور الاوضاع المادية لحياة البشر وبتطور العلوم المختلفة وفي طليعتها علم الاجتماع.

ومرت الاعوام تلو الاعوام وكمبانيلا لا يزال منسياً في سجنه، وعلم في السنة التاسعة عشرة من سجنه ان غاليله قد اعتقل، وانه يعذب لآرائه العلمية الجريئة، فاستهان كمبانيلا بآلامه، وكتب دفاعاً عن غاليله وتأييداً للآراء التي يضطهد من اجلها وارسلها لتنشر بين الناس.

وحين طال امد سجنه وتقدم في السن سمح له باستقبال بعض اصدقائه، فعمل هؤلاء على نشر مؤلفاته، فراجت رواجاً عظيم، وحظيت باعجاب كبير واصبح للفيلسوف في فرنسا مريدون كثيرون، واخذ الكونت دونوايل السفير الفرنسي في روما، يسعى لدى الحكومة لاطلاق سراحه، ولكن روما التي كانت تخضع حينذاك للنفوذ الاسباني، لم تكن لتستطيع اطلاق سراح كمبانيلا وان رغبت هي في ذلك وارادت ان تغفر له جرأته وآراءه العلمية.

واصدر كمبانيلا كتاباً جديداً بعنوان « معنى الاشياء » ضمنه كثيراً من آرائه الاجتماعية ودعوته الاصلاحية، فعدته محكمة التفتيش الاسبانية كتاباً الحادياً واتهمت مؤلفه بالهرطقة، فخشي الكونت دونوايل على حياته، وسعى لدى البابا في ان يحاكمه بنفسه لانه مواطن ايطالي لا اسباني، وكانت روما حريصة على صداقة فرنسا لتستعين بها على مقاومة النفوذ الاسباني في بلادها، فبادر البابا الى محاكمة كمبانيلا، والقى هذا دفاعاً كبيراً اعتمد فيه على الاناجيل الاربعة، وختم خطابه بقوله ان العالم في حاجة الى فلسفة جديدة مستمدة من تعاليم المسيح لا من تعاليم شراحه ومدعي العمل بسنته، فبرئت ساحته، وافرج عنه بعد ان دام سجنه سبعة وعشرين عاماً.

وغضبت السلطة الاسبانية للافراج عن كمبانيلا، وبثت الارصاد حوله لاغتياله. فانتقل من السجن الى السفارة الفرنسية، ثم رحل الى فرنسا متنكراً في عربة السفير نفسه.

وسرعان ما غدت فرنسا وطناً ثانياً لكمبانيلا، فقد وجد فيها الامن والحرية اللذين افتقدهما في وطنه، ووجد فوق هذا كثيراً من المعجبين به والمؤيدين لمبادئه.

وكان كمبانيلا قد غدا شيخاً متهدماً، أبيض الشعر واللحية، فسر بذلك المجتمع الناهض وعلى رأسه ديكارت الذي ضاعف كتابه « المنهج » قوى الفكر البشري وبعث فيها دماً جديداً، ولكنه شعر بانه لم يعد يستطيع الكفاح معه، فاعتزل في دير الدومينيكان بشارع سان اونوريه، وقضى بقية حياته في استقبال المعجبين به، محدثاً عما لقيه من عذاب في سبيل مبادئه الحرة، مبشراً بمستقبل اوفر عدالة وسعادة، قائلا انه ليس الا ناقوساً يؤذن بميلاد فجر جديد.

الفكر المقيد

بقلم وديع فلسطين

تجتاز الحركة الفكرية في هذا الاوان مرحلة جمود ، ان لم تكن مرحلة نكوص واستدبار . فالعقل يصوب الى الوراء عوضاً عن ان يتطلع الى الامام ، ورجال الفكر تقيد افكارهم عوامل شتى منها ما هو داخلي متعلق بالنفس ، ومنها ما هو خارجي مختص بالكيان المحيط بالمرء ، ومنها ما هو ناشيء عن غيبيات ومعتنقات تدخل في حيّز المجهول . وأنت تستطيع ان تتلمس مظاهر هذا الجمود وذاك النكوص في كثير مما تحمله اليك دواليب الطباعة صبيحة كل يوم وعشية كل نهار من صحف ودوريات وكتب ، لانك لا تجد في هذه المنتجات جميعاً ما يحفزك على الاستزادة من التفكير ، او ما يحرك فيك قوى الفكر الخامدة ، او ما يفتح امامك سراديب الرأي المغلقة ، او ما يدعوك الى الانبثاق من عالم المادة المحسوس الملموس الى عالم الفلسفات المتلاطمة ذات الخضم .

نحن نرى في الغرب مثلاً فلاسفة معاصرين كبرتراند رسل ووليم جيمس ويورانت وألبرت أينشتين – ويمكن درجه في عداد الفلاسفة – وبرنارد شو وه . ج . ولز الذي راح من عام مضى . ولكننا اذ نتأمل العالم العربي ونقلب اسماء الذين تدولوا من الحركة الفكرية وتداولوها ، يستعصي علينا ان نرصد بينها اسم متفلسف عربي معاصر اللهم الا نقولا الحداد ، وسلامة موسى واسماعيل مظهر . وما ذلك الا لان رجال الفكر يرسفون في الاغلب في اغلال يفرضونها هم على أنفسهم ويؤثرون سكينة البال على مكابدة الكفاح الفكري في عالم الادب والثقافة .

وعلة الجمود الفكري ان الكتاب يسلكون في ما يحبرون مسلكاً يحاول استرضاء القارئين واشباع رغبات معينة عندهم ، وما أيسر ما يقدم الطعام اللين الهين لكل فم ممدود فيتناوله في تثاؤب واستخذاء ، ولا يكلفه هضمه ، بله تمثيله واستيعابه ، الا قليلاً من المشقة غير المدركة . فالكاتب لم يعد يسأل نفسه : ما هي آرائي وكيف ابسطها سواء لاقت قبولاً عاماً ، او صادفت اعراضاً عاماً ، او اعتركتها أفهام القارئين بين مؤيد ومعارض ، وممالىء ومناوىء . . . كلا لم يعد

وما كاد يقرأ كتاب « المنهج » لديكارت حتى اعجب به اعجاباً عظيماً ، وهتف : « ان الكوكب قد بزغ » فقيل له : « اي كوكب تعني ؟ فقال : « الكوكب الذي يسبق الفجر . » .

وبادر كمبانيلا بالرحيل الى هولندا ، بالرغم من شيخوخته ، لمقابلة هذا العبقري المصلح . ولكن ديكارت كان يتحاشى الناس ويبتعد عنهم ، معتقداً بان فكر الانسان لا يستطيع النفاذ الى اعماق الحقائق الفلسفية الا في ظل الوحدة . فعاد مؤلف « مدينة الشمس » الى باريس دون ان يجتمع بمؤلف « مقال في المنهج » ، ومن المؤسف ان لا يتلاقى هذان المفكران الكبيران اللذان تلاقت اراؤهما في نواح كثيرة .

وما لبث كمبانيلا ان توفي سنة ١٦٣٩ وهو في الحادية والسبعين من عمره ، فدفن في كنيسة الدير باحتفال مهيب ، وجاء جميع الذين عرفوه وقرأوه وأحبوه يلقون نظرة وداع على جثمان رجل كان قلبه الكبير يخفق بحب الانسانية جمعاء .

وفي تلك البناية التي دفن فيها كمبانيلا ، والتي سميت منذ ذلك الحين « نادي اليعاقبة » ، جمعت الحركة الاجتماعية التي انفجرت سنة ١٧٨٩ اعظم رجال الثورة الفرنسية ودعاة حقوق الانسان ، فكأن القدر قد شاء ان يسمع ذلك الثائر ، وهو في قبره ، وبعد مائة وخمسين سنة من وفاته ، اول انتصار تحرزه المبادىء التي قضى حياته مكافحاً من اجلها ومضحياً في سبيلها .

فدري قلعجي

الكاتب يسأل نفسه هذا السؤال، بل يوجه الى ذاته سؤالا آخر فيه من الهون والوهن غير قليل، وفيه التكاسل والتخاذل كثير. والسؤال هو: ماذا يريد القارىء، واي شيء يستطيبه، وكيف ابلغه منيته من أيسر سبيل وبأهون نفقة؟ لم يعد الكفاح ديدنه اذن، بل اصبح الديدن والهدف الاسترخاء والجمود وايثار حياة الدعة على حياة المجاهدة.

اما الذين يدعون التجديد، فهم يتصدرون في الاغلب حركات يغلب عليها طابع الهدم والتجريح، حركات لا يقصد منها مقارعة الرأي بالرأي ومصاولة الحجة بالحجة، بل يرجى منها التسفيه والتقبيح واهدار الاقدار التي رفعت نفسها بعد جهاد مستطيل. وليس هذا بتجديد، ولا هو بجرية رأي او عصيان على قيود الفكر. وانما هو اقرب الى عبث العابث منه الى جد الجاد، وآية ذلك انك اذا تابعت ما يكتبه اولئك المجددون الذين ينعون على غيرهم الجمود والرجعية، وجدتهم هم انفسهم صرعى ذلك الجمود، لا يعرفون كيف يطلعون على القراء برأي جديد، ولا تساعدهم ملكاتهم القاصرة على توليد فكر جديد. والتجديد هو على الدوام أظهر مظهر للحيوية والانتعاش والارتقاء.

وما دام الكاتب يستعبد نفسه لشهوة القارىء، وما دام يدخل في حسابه اعتبارات تلجم القلم وتقيد الفكر، وتطبع المقال او الفصل بطابع شخصي بحت، فسيظل على الرغم منه مستعبداً مستذلا حتى وان جاهر بتحرره وعصيانه على السنن المألوفة الراكدة.

هذا سلامة موسى مثلا، قرأت له كتباً كثيرة مما كتب، وقرأت له فصولا اكثر من ذلك فاضت بها صفحات الدوريات، فلم أجد نفسي بعد كل مقطع الا متسائلا: أليس هذا رأياً جديداً جريئاً منبعثاً من عقل جديد متجدد جريء؟ ولست اعني بذلك انني اتفق مع سلامة موسى في كل حرف يخطه او في كل عبارة يوردها، ولكنني اجد نفسي في حال صراع: بين اقبال واحجام تنتهي بكتب الغلبة لاحدى الحالتين.

ولذلك يرى الذين يقيسون الآداب بمقياس غير جامد، ان سلامة موسى حر لا يستعبد ولا يستطاع استعباده، وان آراءه على الدوام بكر غير مفضوضة، لها من الخصوم والانصار ما لكل داعية من دعاة الرأي والمنطق والفكر غير المصفد.

فسلامه موسى لا يكتب ما يمليه عليه قلمه، ولا ما تدونه يده، وانما يكتب ما استطاعت آفاق فكره المترسلة ان تحصره في نطاق الكلام المكتوب والمقالة المقولة وما استعبد سلامة موسى نفسه قط لقارىء من قرائه او لعميل عن عملاء كتبه. وانما هو يكتب ما ينبثق من صميم وجدانه ومن كيان وعيه، ويرمي القنابل الفكرية فتحدث الدوي المنشود. والفكر، من قبل ومن بعد، حركة، حركة ذات حيوية وذات انفعال، وذات ترجيع وذات اصداء، وان لم تكن هذه نتائجها فمصيرها الى موات مبكر.

فاذا دعونا الى تحرر الاقلام وتحرر الكتاب، فان اول ركن من اركان هذه الدعوة يجب ان يكون التحرر من ربقة استبداد القارىء. واستعباده، لان المفروض في صاحب الرأي ان يوجه وان يحرك وان ينشط، وليس المفروض فيه ان يساير القارىء ويربت على كتفه ويصفق مع المصفقين او يقول: «ايه يا هذا».

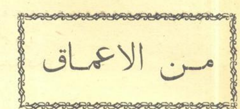
وثمة ركن آخر من اركان الدعوة الى المروق من مذلة الاقفاص الفكرية واعني بذلك الاحتفال بكل جديد والاهتمام به بحثاً وفحصاً وتقليباً ونقداً - لا تعريضاً ولا تطاولا - مع متابعة التحولات العلمية والاقتصادية والادبية التي تلهث في بلدان العالم وتركض ركضاً وتكاد تسابق الحياة الانسانية نفسها. فسياسة الاستكفاء الذاتي لا يمكن لاديب ان يجعلها شيمته أو منهاج حياته، لان التفاعل الفكري اذا انتفى كان مآله ان يغدو آسناً ترعى فيه حشرات ضيق الافق، وتعالي الغرور واسفاف يتجلى في عبارات تلوكها الالسنة وتطفح بها منتجات عقولهم الباهتة. فالاديب لا يستطيع ان يقصر مجاله على الدائرة الضيقة التي أخذ نفسه بها وختم عليها بخاتم لا يفض، انما الاديب الحي المتطلع الى الحياة هو الذي يجعل فكره جزءاً من الفكر العام في الكون المحيط بنا، ويجعل خياله جزءاً حياً من التطورات التي تطرأ على العالم في كل لحظة وبين كل حين وحين.

ومما يقيد الفكر عوامل تمليها على الاديب ظروف طارئة كرقابة مفروضة او حكم طاغ مبسوط او تحكم عنصر المادة على عناصر الانتعاش الفكري الاخرى. ولو ترك لي ان اختار بين حرية مقيدة وبين احجام عن الكتابة والقراءة ومتابعة النشاط الثقافي لآثرت الجانب الثاني مع ما فيه من قتل نفسي، لان القتل اهون على الحياة من التعذيب المطول، ولان الاعدام كثيراً ما يكون اكثر رحمة من التعرض للسياط يوماً بعد يوم.

حرية الفكر هي مولدة كل نهضة، وهي حافزة كل نشاط، وهي ناقلة للمرء من عالم القصور والنقائص الى عالم الاستكمال والتعويض.

فينبغي لنا ان نحرر افكارنا واقلامنا من استعباد النفس، ومن اذلال الغير، ومن سطوة المجهول.

القاهرة — وديع فلسطين



للآنسة المطوقة

فلسطين

سرتُ وحدي في غربة العمر، في التيه المعمى، تيه الحياة السحيق
لا أرى غايةً لسيري ولا أبصر قصداً يوفي اليه طريقي
ملل في صميم روحي ينساب، وفيض من الظلام الدّفوق
وأنا في توحشي، تنفض الحيرة حولي أشباح رعب محيق

***

سرت وحدي في التيه، لا قلب يهتز صدى خفقه بقلبي الوحيد
سرت وحدي، لا وقع خطو سوى خطوي على المجهل المخوف البعيد
لا رفيق، لا صاحب، لا دليل غير يأسي ووحدتي وشرودي
وجمود الحياة يضفي على عمري ظلّ الفناء، ظل الهمود!.

***

والتقينا، لم أدر أي قوى ساقتك حتى عبرت درب حياتي
كيف كان اللقاء؟ من ذا هدى خطوك؟ كيف انبعثت في طرقاتي؟
لست ادري، لكن رأيتك روحاً يوقظ الشوق في مسارب ذاتي
ويذري الرماد عن روحي الخابي، ويذكي ناري، ويحيي مواتي

حدّقت مقلتاك فيّ وآلامي يُغشي ضبابها مقلتيّه
لست ادري ما استجلتاه ولا ما رأتا خلف وحدتي الأبديه
غير أني ابصرت روحك يهتز انعطافاً في رقة علويه
وهنا خلتني شعرت بروح الله رفت من السماء عليّه!

***

يا لعينيك، اي نفضة بعث أوجدتها عيناك في اعماقي
فاذا بالحياة عارمة النبض بفيض الحنين، بالاشواق
واذا بالجمال يعكس ألوان رؤاه على مدى آفاقي
واذا بي في ظل حب عظيم معجز السحر، مبدع، خلاق!

***

نظرة فتّحت لقلبي ابواب السموات والجنان العليّه..
وجلت لي افقاً يموج به الوحي، وتستعلن الرؤى القدسيه
فيه سحر الالوان، فيه صدى الالحان، فيه منابع الشاعريه
نظرة خلف عمقها رحت استشرف عمق الخلود والابديه

***

ومضت بي الايام، لا أنا صرّحت، ولا لهفتي الحيّية تبدو
كم وكم راح يحتوينا مكان وأنا صبوة توارت ووجدُ
كم حديث حدثتني، كم مكان هز روحي وانت تروي وتشدو
وبقلبي السعيد شيء كعنف الموج، يطغى تياره ويمد

***

ومضت بي الايام والزمن العجلان يجري كالهارب المجنون
وسكوني ما انفك يرخي سدولا فوق رعشات قلبي المفتون
وتلفّتُ بغتة، وبعمقي نشوة السحر والهوى والفتون
واذا قلبي المرنح اشلاء على راحة الوداع الحزين

***

وافترقنا، وملء نفسي — لو تدري — احاسيس هائمات حيارى
وهواي المكبوت يجهش في صمت.. وتهمي دموعه اشعارا
كم شجاني وداعك المر، كم سالت قلبي الممزق المستطارا
كيف كان الفراق؟ كيف انزوى وجهك عني في لحظة وتواري؟

***

وافترقنا وبين كفيّ رسم لم يزل كل زاد روحي المتيم
لم تلمست عمق عينيك فيه وبعيني أدمع تتضرم..
يا لقلبي، كم راح بين يديه يهتك الحجب عن هواه المكتم
أصغ تسمع عبر الصحارى صداه يترامى اليك شعراً مرنم

جون كيتس ، والجمال والموت

بقلم جبرا ابراهيم جبرا
استاذ في الآداب من جامعة كمبرج

« الجمال هو الحق ، والحق هو الجمال .

«ذلكم كل ما تعرفون على الارض، وكل ما عليكم ان تعرفوه»

قال هذه العبارة الشاعر الانكليزي جون كيتس، ولم يتردد في تطبيقها على حياته. فقد هام بفكرة الجمال ، ووقف حياته على التغني بها.

مات كيتس (Keats) قبل قرن وربع قرن، وما زالت كلماته هذه ترددها ألسن الكتاب والشعراء من بعده. فالقرن التاسع عشر — ولعله القرن الذي بلغت فيه حضارة الغرب أوجها – انتج عشرات من المبدعين في الفن، لم ينج واحد منهم من تأثير كيتس. فقد جاء كيتس بصراحة البري. وقال بدون حياء او تردد : « ان ما يعلن الخيال بأنه جميل يجب ان يكون حقاً، سواء أوجد من قبل ام لم يوجد» وعاد بدراسته الى أساطير الاغريق، واعتصر منها فكرة واحدة، هي ان الحياة يجب ان تكون مفعمة بالاحاسيس، وان هذه الاحاسيس ينبغي ان يكون الدافع اليها هو حب الجمال.

ولكن ما هو هذا الجمال ؟ والحياة بقبحها الكثير وآلامها المستمرة ، كيف نستطيع ان نتغاضى عما فيها ، وننصرف الى متعة الذهن والحس بالجمال ؟

وهذه كانت مشكلة كيتس ، وهذه هي الاسئلة التي حاول ان يجد لها جواباً في شعره ، وفي حياته . فكتب القصيدة تلو القصيدة ، والرسالة تلو الرسالة ، باحثاً في حنايا صدره عن الشكل الذي يجب أن يضع فيه جوابه على مسألة الجمال.

ولما كان في الثانية والعشرين من عمره ذهب الى دار صديق له في اكسفورد ، وهناك صمم على ان يكتب كل يوم خمسين بيتاً من الشعر في نظم قصة طويلة سماها « انديميون» . ولم تكن الا أسابيع حتى أخرج رواية شعرية في بضعة آلاف بيت امتلأت بروائع العبارات والصور الحسية . وهي تدور حول الراعي انديميون الذي وقعت في هواه إلهة القمر ديانا ، فحملته وهو في نومه في الفضاء ، ثم نزلت به الى أعماق البحار ، واخترقت به طبقات الارض، لكي تطلعه على اسرار الكون وحسنه العجيب . وكانت الفكرة الرائدة في أطواء الرواية هي فكرة الجمال في جوهره النقي يتنقل بخيال الانسان في عوالم الكون . ولكن لما كان خيال كيتس الشاب يثب وثبات لا يستطيع لها كبحاً ، فقد جاءت الرواية مثقلة بما فيها ، كما أنه لم يستطع ان يحفظ نفسه من الزلل في القول والغرابة في النظم . بيد أن « انديميون » خرجت الى الوجود تحمل فورة الخيال الجامح ، وتسجل لشاعرنا الفتي نصراً في تصويره فكرة الجمال تصويراً يكاد القارىء يجفل لروعته . وافتتحها قائلاً :

إنما الشيء الجميل فرح مقيم الى الابد ،
وحسنه في ازدياد ، ولن يتلاشى أبدا ،
بل يبقي لنا دوماً عرائش وادعات، ونوماً يطفح بحلو الاحلام والعافيه . . .
ولذا ترانا لغداة كل يوم نصوغ حبالا من الازاهر
لتربطنا بالارض، رغم ما فيها من قنوط وشح بالانفس النبيلة : رغم تجهم الليالي
ووعورة المسالك المدلهمة التي فرض علينا الضرب فيها : أجل، رغم هذا كله
فان هناك من الجمال اشكلاً يرفع ستر الموت
عن أنفسنا ، وقد سودّها الخطوب . . .

أما النقاد فلم يرأفوا به ، وهاجوه بنقد مقذع ، متهمين اياه بضربه اصول اللغة عرض الحائط . غير أنه كتب يقول في احدى رسائله رداً على ذلك: « ليس للمدح او الذم الا تأثير طفيف على امرىء جعل منه حب الجمال المجرد نقاداً شديداً لكتاباته . . .»

واستطرد يقول: « ان عبقرية الشعر لا تنضج في المرء الا من تلقاء نفسها . انها لا تنضج بفعل القواعد والقوانين ، بل بارهاف الحس في نفسها وبالوعي المستمر . فكل ما هو خلاق مبدع يخلق ويبدع نفسه . عندما كتبت « انديميون » قفزت رأساً في البحر ، وبذا تعرفت على الاعماق والرمال المتنقلة والصخور، وما كنت لاعرف هذا كله لو بقيت على الشاطىء الاخضر ، أعزف لحناً سخيفاً ، وأشرب الشاي ، واستمع الى النصائح .»

ولكن ما هي التفاصيل في حياة جون كيتس ؟

انها قليلة جداً. فقد ولد في سنة ١٧٩٥ في لندن، ومات وهو في منتصف السادسة والعشرين من عمره في سنة ١٨٢١. كان ابوه سائس خيل، غير انه كان يطمح الى تعليم ابنه تعليما عالياً ما استطاع. فأرسله الى مدرسة معروفة، حيث اشتهر لا بذكائه، بل بقوته البدنية واستعداده للنزال دائماً مع زملائه الطلاب! وفي سن الخامسة عشرة تتلمذ في احد المستشفيات (وكثيراً ما كان اثناء المحاضرات يسطر ابياتاً هزلية بدلا من الاستماع)، وتخرج بعد بضع سنوات في الصيدلية. غير انه اثناء ذلك انصرف الى قراءة الشعر ونظمه، وبدأت مواهبه تظهر ولذلك، حالما انهى دراسته الطبية، عزم على ألا يمس مبضعاً في حياته، وان يوقف نفسه على الشعر. وكان له اصدقاء كثيرون من الكتاب وعشاق الادب والفن، كتب اليهم رسائل هي الآن من كنوز الادب، تصور نمو العبقرية ونضوجها فيه، وهو يحاول ان يتفهم الجمال، وان يحدد مهمة الشاعر في الحياة. وقد ادرك ان الشاعر يجب ان يكون ذا حساسية مرهفة وشعور عميق بكل ما يحيط به، حتى قال: « اذ حط عصفور على نافذتي شاركته الحياة وجعلت انقر مثله بين الحصى.» وفي رسالة مشهورة له اوضح كيف ان الشاعر اذ يجمع في ادراكه للحياة بين افراحها ومآسيها، بين حسنها وقبحها، يجب ان يكون دون شخصية معينة فهو يقول:

« اما من حيث الطبع الشعري (اعني ذلك الطبع الذي ان كنت أتصف بشيء، فانما اتصف به)، فهو ليس نفسه، ولاذات له — فهو كل شيء ولا شيء معاً — وليست له صفه خاصة به: يتمتع بالاضواء وبالظلال، ويحيا في تدفق مندفع، سواء اكان جميلا ام قبيحاً، مرتفعاً ام متضعاً، غنياً ام فقيراً، وضيعاً ام سامياً، ويجد لذة في خلق شخصية شريرة كشخصية ياغو، بقدر ما يجدي خلق شخصية طاهرة كشخصية ايوجن(١)، وما يزعج الفيلسوف الفاضل يسر الشاعر المتلون تلون الحرباء. فلا يضيره ان يتذوق نواحي الاشياء المظلمة اكثر مما يضيره تذوق النواحي البراقة، لان كلا التذوقين انما ينتهي الى التأمل المجرد. ان الشاعر اقل ما في الوجود جمالا شعرياً، لانه لا هوية له، لانه يصب نفسه دون انقطاع في اجسام اخرى فالشمس والقمر والبحر والرجال والنساء، وهي مخلوقات تدفعها دوافع لا تفكر فيها، كلها شعرية ولها مميزات لا تتبدل. — اما الشاعر فلا مميز له، ولا هوية — لا ريب في انه اقل مخلوقات الله جمالا شعرياً..»

وراح شاعرنا ينظم القصائد مدفوعاً بهذا الايمان، مستوحياً شكسبير أحب الشعراء الى نفسه (وما العبارة السالفة الا وصف غير مباشر لشخصية شكسبير كما رآها كيتس). وكان وفير الانتاج، يتطور فنه ويتحسن بسرعة عجيبة. وكان اذا ما اختلى بنفسه يتأمل في ما سيكتب، اذا مد الله في عمره « في السنين التي اكون قد نضجت فيها نضوجاً اكثر »، يقول: « ان الصور المبهمة التي تمر بخيالي للقصائد التي سأنظمها في المستقبل لكثيراً ما تبعث الدم حاراً في جبيني.. ولسوف اكتب مدفوعاً بمجرد تشوقي الى الجمال وتعشقي له، حتى ولو احرقت كل صباح ما خطته يدي في الليل، ولم تقع عليه يوماً عين احد.»

ولكنه لم يحظ بسني العمر التي منى نفسه بها، فداهمه مرض السل — وكان قد قضى على حياة امه وأخيه من قبل — وفي الوقت نفسه وقع في غرام فتاة كانت جارة له تدعى فاني برون Fanny Brawn، ولم يرأف الحب بصحته، وخياله الملتهب يضيف الى هواه عنفاً وحدة. وكان قبل ذلك يتهرب من الحب كأنه يخشى على شعره من اهواء امرأة تملك عليه قلبه. فقد قال مرة:

« لم احب قط، غير ان صوت امرأة معينه وصورتها قد لازماني هذين اليومين.. ولكن الشعر هذا الصباح انتصر (على صورة هذه المرأة)، فقد عدت الى تلك الافكار المجردة، وفيها وحدها اجد حياتي، وأشعر كأنني قد نجوت من الم جديد غريب يهددني — واني لاحمد الله من أجل ذلك — وحول قلبي دفء عجيب كأنه عبء من الخلود».

وفي هذه الفترة المضطربة من حياته كتب اروع قصائده، منها القصص الشعرية « لمياء » و« ايزابلا » و« ليلة عيد القديسة اغنيس »، واغانيه (Odes) الى بسايكي والى الحزن وعن الوعاء الاغريقي وقصيدته السحرية « الحسناء لا ترحم » — وكل هذه من غرر الشعر الانكليزي، بل الشعر الاوربي اطلاقاً. وهذه القصائد تمثل الروح الرومانسية التي كان كيتس من قادتها — مع وردزورث وشلي وبيرون — وهي الحركة التي خلفت آثارها وطرقها في التعبير في الآداب الحية حتى يومنا هذا، واطلقت الخيال من كل عقال.

غير ان المرض الح عليه والحب فوق ذلك يضنيه لانه لا يستطيع لمرضه ان يكون دائماً مع حبيبته، وادرك ان الحياة تتسرب من بين يديه. حينئذ كتب اشهر قصائده التي سماها « اغنية الى بلبل ».

(١) ياغو هو الشرير في مسرحية « عطيل »، وايوجن هي بطلة مسرحية « سمبلين » وكلاهما لشكسبير.

فقد جلس ذات ليله وأصغى الى البلبل يشدو غير منظور ، فراح كيتس يصف نشوته ، ويتمنى لو يستطيع ان يهجر العالم كالطير غير مرئي ؛ ويتلاشى معه في اعماق الآجام المظلمة ويفنى في غنائه . ثم يقول مناجياً البلبل وهو يصف حاله :

ليتني اتلاشى بعيدا معك واذوب فأنسى كل ما لم نعرفه انت بين اوراق الشجر
من القلق والاوصاب والحمى التي هنا ،
حيث يصفر الشباب ويهزل كالطيف ليطويه الردى ،
حيث تلم بالمرء – اذا ما تأمل – على الفور الشجون
وأشباح يأس كسيفة الطرف تقرحت منها الجفون ،
حيث لا يقوى الجمال ان يُبقي على البريق في عينيه ،
ولا الحب يأسى أكثر من يومين عليه .

اذن ولد هذا الشاعر وعاش مغموراً ، ولكنه وقف حياته القصيرة على الشعر ، وعزم على ان يشتهر فيه مهما كلفه الامر . فكانت الشهرة التي طالما تحدث عنها من سبقه من الشعراء ، كحبيبة ماثلة دوماً امام عينيه ، يريد ارضاءها ولو بأغلى الثمن . وهل هناك ما هو اغلى ثمناً من حياته ؟ غير انه أدرك ان الموت لن يمهله ، وان القضاء المحتوم يلاحقه ، ولن يتيح له من الايام ما يكفيه لمتابعة ما في رأسه من افكار وخيالات . وهذا يبعث الخوف والاسى في قلبه ، واحياناً يثير فيه الغضب :

« لماذا ضحكتُ الليلة ؟ لن يخبرني صوت بذلك :
لا الله ولا شيطان فظ الجواب يتنازل للرد علي من السماء او الجحيم .
فألتفت الى قلبي الانسي في الحال واقول : لماذا ضحكت؟ يا للألم القتال!
يا للظلام للظلام! حتى م أئن واسأل السماء والجحيم والقلب بدون طائل؟
لماذا ضحكت ؟ لعمري اني لأعرف مداه ،
وان خيالي ليمتد بنعمائه الى أقصى أقاصيه ،
ولكن لكم أتمنى لو تقف حياتي في انتصاف الليل هذا ،
وأرى أعلام الدنيا المبهرجة تتمزق شر ممزق :
فالشعر وبعد الصيت والجمال ، كلها عميقة في معانيها ،
غير أن الموت اقوى واعمق – انما الموت جزاء الحياة . »

غير ان كيتس لم ينثنِ عن عزمه ، لانه كان يشعر بانه من اسرة الشعراء المخلدين ، وقد وضع نصب عينيه كمثالين يقتدي بهما شكسبير وملتون ، فجاء شعره في النهاية كمتمم لشعرهما وهو لا يعرف ذلك ، لانه قبل ان يموت قال : « اظن انني سأكون في عداد الشعراء ». ولم يعلم انه في الواقع قد وضع نفسه ، رغم القضاء الذي لم يرحمه ، في زمرة الخالدين ، بقرب احب الشعراء الى نفسه ، شكسبير .

ولكن مأساته ما زالت تفطر القلب . فهذا الفتى يموت ولما يكمل السادسة والعشرين ، وقد جمع في ذهنه من الفكر والاحاسيس ما يحتاج الى سنين كثيرة من الكتابة قبل ان يصبها في قوالبها الشعرية ، ألم يعمر شكسبير اكثر من خمسين سنة ؟ وملتون وغوته وعشرات الشعراء الآخرين : لو ماتوا في سنه ، هل كنا نذكر لهم اسماً او اثراً ؟ هذه اذن مأساته : انه يريد من الزمان ان يرفق به الى ان يفرغ من صب عواطفه واحاسيسه في قوالبها السحرية ، فيشبه ذهنه بالارض التي اخصب الزرع فيها ، وما بقي عليه الا ان يحصد الغلال ويجمعها في العنابر . فيقول :

حين تنوشني المخاوف بأني قد أموت قبل ان يحصد القلم غلال ذهني الزاخر ،
قبل ان تحوي الكتب وقد تكدست محاصيل الحَبّ الناضج الوفير كالعنابر ،
وحين ارى على وجه الليل المرصع بالنجوم
رموزا كالسحب الكثيفة لقصة حب وشجى أليم ،
وادرك انني لن يتاح لي من العمر حتى انلمس بيد سحرية ملهمة ظلالها ،
وحين اشعر ، يا جميلة لن يطول بقائي معها ،
أنني لن أرنو اليك ابداً ولن اتذوق ما فيك من فتنة الجن
بعشق لا يكبحه التردد – حينئذ على شاطىء العالم الفسيح أراني واقفاً وحدي ،
أطرق مفكرا الى ان يتلاشى الهوى ، وتفنى الشهرة أمام عيني .

ويكتب الى «فاني» يقول : «يا للهول اذا طوتني الارض بدلا من ذراعيك وما أشد الفرق بين الامرين! ان الفرق هو هذا الحب العجيب . الموت لا بد آت أخيرا ، والانسان مائت لا محالة . ولكن قبل ان يكون ذلك من نصيبي ، لشدما أتوق الى معرفة نشوة أكثر من تلك التي أنعمت بها علي! أعطيني بضع سنوات أخر للحياة ، أمت وشهرتي باقية . »

وحين علم الشاعر شلي بمرض كيتس دعاه الى ايطاليا – حيث كان هو مقيما منذ سنوات – فلعل كيتس يجد في دفء الجنوب ما يخفف عنه برحاء المرض . فلبى الدعوة وغادر بلاده برفقة صديقه الحميم «جوزف سفرن» – وكان هذا رساماً خلف لنا صورا كثيرة لكيتس – وعلى ظهر السفينة ، اذ كان رأس الشاعر عامرا بخيالات حبيبته ، كتب آخر قصيدة له على صفحة خالية في كتاب لشكسبير كان يقرأ فيه . قال :

أيها الكوكب الساطع ! ليتني كنت ثابتاً مثلك
لا في بقائك في ذرى الليل معلقاً في روعة وحدتك ،
حيث ترقب ابد الدهر باجفان لا تنطبق (كناسك الطبيعة لا يكل ولا ينام)
المياه التي لا تستقر بطقسها الكاهني في تطهير شطآن العالم البشري ،
او حين تنظر الى قناع الثلج الجديد الذي يهبط ناعماً على الجبال والقفار
لا ، بل ثابتاً مقيماً لا اتغير ، متوسدا صدر حبيبتي الجميلة ، وقد غداها في نضج ،
لكي اشعر دوماً بارتفاعه الناعم وانخفاضه ،
مستيقظاً دوماً في قلق لذيذ ، وأصغي دائماً الى انفاسها ،
وكذا اعيش الى الابد – او اغيب عن نفسي حتى الموت .

ولكن لم تنقض اسابيع قليلة بعد وصوله الى ايطاليا حتى وافته المنية غريباً عن اهله وموطنه ، ودفن في روما . فلما سمع شلي بذلك نظم في رثائه قصيدة طويلة رائعة الجمال عنوانها «ادونيس» Adonais ، ويعني بذلك كيتس ، قال فيها :

« ان روح ادونيس ككوكب في الاعالي
يشع نورها من المنازل حيث يقيم المخلدون . »

أما جون كيتس ، فقد طلب قبل موته ان تحفر هذه العبارة على قبره :

« هنا يرقد رجل كتب اسمه بالماء . »

من كتاب « الثورة الرومانسية » تحت الطبع

جبرا ابراهيم جبرا

تابع

الحرس الذين يحيطون بالدوق دورليان عم الملك لويس الرابع عشر ، والفرسان الذين يعملون تحت امرته ، شباناً مغامرين جريئين ، ذوي قوة واقدام وبأس ، يهابهم الناس ويخشون سطوتهم ، لان حماية الدوق لهم ، وضعف السلطة الملكية ، كانتا تضعانهم فوق كل سلطان. وكان بين هؤلاء الفرسان أخوان أنيقان ، يدعى احدهما هنري دو بيللوي سيد شارموي وهو ضابط في فرقة بيبمون التابعة لقصر الدوق ، وهرقل بيللوي رئيس حرسه.

وقد عاش السيد شارموي حياة صاخبة حافلة بالمغامرات والمبارزات ، ثم بدا له ، بعد ان بدد شبابه وفقد ماله ، أن يتزوج بفتاة غنية ، فحدثه صديق له يدعى السيد دو لاموراندير عن فتاة وحيدة للسيد غليوم دو فيبار مركيز دو سانت كروا ، أحد كبار المتمولين في مقاطعة نورمانديا ، ودعاه لمرافقته الى مدينة كان ، واعداً اياه بان يعرفه بالفتاة في احدى الحفلات الراقصة ، فقبل شارموي الدعوة ، موقناً بأنه متى تعرف بالفتاة استطاع اغراءها والزواج بها. ولكن الشاب المغامر ما لبث ان شعر بخيبة الامل ، فقد اعجبته الفتاة واعجبته ثروتها الطائلة على الاخص ، الا ان الفتاة لم تعجب به ، وعبثاً حاول اغراءها والتقرب منها ، فانها كانت تقابله بالصد والاعراض. ولم يكن موقف اسرتها خيراً من موقفها ، فان الام ما كادت تلاحظ تعلقه بابنتها حتى سألت عنه ، فسمعت من انبائه ما لا يسر ، بل ما يبعث على النفور ، فحدثت بذلك اخاها السيد غلانتيني وباقي افراد اسرتها ، فاتفقوا جميعاً على ابعاده والحذر منه.

عاد شارموي الى باريس خائباً مهيض الجناح ، ولكنه لم يقنط مما عقد العزم عليه ، وما لبث ان توسط لدى الدوق دورليان ، فدعا هذا السيد غلانتيني خال الفتاة الى القصر ، وقال له ان لديه مفاجأة سيسر بها كثيراً ، وهي ان ضابطاً من ضباطه يريد الزواج بابنة اخته الآنسة دو سانت كروا ، وهو يعد بترقية هذا الضابط وزيادة مرتبه قبل الزواج ، فقال السيد غلانتيني انه لا يستطيع الادلاء برأيه في هذا الامر ، لانه يتوقف على رغبة الابوين وحدهما ، فما كان من الدوق الا ان ارسل بصحبته وفداً الى كان لخطبة الفتاة من أبويها وابلاغهما عطفه على الخطيب وأمله في تحقيق مبتغاه. بيد ان حظ هذا الوفد لم يكن خيراً من حظ شارموي نفسه ، اذ ما عتم ان عاد ليبلغ صاحب السمو الملكي احترام اسرة دو سانت كروا ، وحرصها الشديد على خدمته وتنفيذ اوامره... ورجاءها له بان يدع لها ابنتها لتقرر مصيرها مثلما تشاء...

وحينئذ غضب السيد شارموي وقرر السعي الى تحقيق غرضه بطرائقه الخاصة ، وسرعان ما اتصل بالمركيز دو سانت كروا اذ علم انه في روان ، فأثنى عليه ثناء عظيماً وقال له ان كفاياته تؤهله لاحتلال مركز رفيع في البلاط ، ووعده بأن يوصي به الدوق اورليان ليجعله من حاشيته. فسر المركيز بذلك ، ودفعته طيبته الى الثقة بشارموي والاسترسال اليه ، فاغتنم هذا فرصة مؤاتية وطلب منه يد ابنته ، وعرض عليه مقابل ذلك عشرة آلاف ايكو يدفعها له نقداً ، واستطاع بأشتات أنواع الاغراء ان يحمله على اجابة طلبه. وبما ان الفتاة كانت لا تزال قاصرة ، فقد أباح الاب لنفسه ممارسة حقه في تقرير مصيرها ، فكتب لشارموي عقداً بالزواج ، مهره بتوقيعه وسلمه اياه. فربح الضابط الصفقة ، واصبح في وسعه استخدام القوة لارغام «زوجته» على الخضوع له ، اذا أبت واسرتها الموافقة والاذعان. غير ان شارموي لم يكن ليفكر في الالتجاء الى القوة ، لانه كان لا يزال مقتنعاً بقدرته على اغواء الفتاة والظفر بقلبها ليظفر من ثم بثروتها.

اختطاف الآنسة دو سانت كروا

وبينما كان شارموي يعقد تلك الصفقة ، كانت اسرة الفتاة ، وقد بلغها النبأ او انذرت به ، تفكر في الاحتياط للامر ، فبادرت الى اعلان خطبتها على شاب موظف في الدولة يدعى السيد انطوان دو نيقولاي ، ثم عهدت الى السيدة دوغاليتي باخفائها في الارياف ، فذهبت بها الى قصر صديقة لها في ضواحي روان.

وما كاد الاب يعلم باختفاء ابنته وباعلان خطبتها دون علم منه ، حتى غضب وعمد بتحريض شارموي الى مقاضاة اسرته مطالباً بفسخ الخطبة واعادة الفتاة. اما شارموي الذي كان حبه للآنسة دو سانت كروا قد بدأ يتعاظم ، فقد ثارت ثائرته وطفق يبحث عن دو نيقولاي في كل مكان يلقاه به ، وضرب بسيفه مرة رجلاً كان يرافق ام الفتاة في عربتها ، وهو يحسبه غريمه فجرحه ثم عرف انه ليس هو فاعتذر منه..

وقد طاف شارموي فرنسا شرقاً وغرباً ، باحثاً عن «زوجته» فلم يعثر لها على أثر ، ولم يتورع ، حين اعياه البحث ، عن الاقدام على اختطاف امها ووضعها تحت الحراسة في قصر الدوق دانغوليم دون


الآنسة دو سانت كروا في الدير

علم منه لتظل فيه رهينة حتى تسلمه ابنتها . الا ان الدوق دانغوليم ما كاد يبلغه هذا النبأ ، حتى أمر بالافراج عنها والاعتذار اليها .

وكان الاب قداستصدر خلال ذلك قراراً من مجلس الملك ، بالقبض على الفتاة وتسليمها اليه . فاسقط في يد الاسرة وابلغته ان الفتاة تقيم في قصر اورسولين بضواحي روان ، ورجته الموافقة على ابقائها فيه تحت الحراسة. ولكن المجلس أصر على احضارها الى باريس بحراسة ثلاثة فرسان .

وشاع ان شارموري سيختطف الآنسة دوسانت كروا ، فاستغاثت اسرتها بأصدقائها من الفرسان النورمانديين ، ورجتهم ان يدعوا بدورهم اصدقاءهم ، واصدقاء اصدقائهم ، ويحضروا جميعاً لحراسة الفتاة اثناء نقلها من القصر الذي تقيم فيه الى باريس، فاستجاب للنداء ثلاثمائة فارس وأقبلوا على جيادهم المطهمة باسلحتهم الكاملة وثيابهم الانيقة ، كأنهم مقبلون الى عرس . وواكب هؤلاء الفرسان الشجعان مركبة الفتاة ، ودخلوا معها الى باريس في ابهة عظيمة . وبلغ مجلس الملك نبأ هذا الموكب الحافل ، فسمح له بمرافقتها الى دير بنات الله في شارع سان دنيس ،وهو المكان الذي عين لاقامتها حتى يفصل القضاء بأمرها ، فتابع الفرسان حراستهم لها حتى تسلمتها السيدة بوكيار رئيسة الدير وصديقة اسرة سانت كروا ، واصبحت في مأمن بين اسوار الدير المنيعة .

غير ان الضابط العاشق قد اقسم على انه سيختطف « زوجته» من الدير المنيع نفسه ، وطفق يعد العدة لتلك المغامرة التي لم يكن من السهل الاقدام عليها في باريس .

وكان دير بنات الله رحباً عالي الاسوار ، فطاف شارموي حوله فاحصاً مدققاً ، ثم وضع خطته لتسلق هذه الاسوار والهبوط الى داخل الدير . وكان يعرف محتالا شهيراً يدعى سانت انج ، عريقاً في الرذيلة والجريمة ، فدعاه الى مساعدته ، فقالت له زوجته وهي امرأة على غراره :

— اذهب يا صديقي ، وكن مطمئناً ، فاني اعدك بان لا اتزوج اذا فقدتك ، الا محتالا مثلك يقض مضاجع رجال الامن !

واستطاع شارموي وسانت انج ان يرشيا بستاني الدير فيأمنا جانبه . ثم اتفقوا مع خمسة آخرين من اصدقائهم ، وتواعدوا جميعاً على اللقاء امام اسوار الدير ، في المكان الذي عينه شارموي ، في الساعة الثالثة من صباح الخامس والعشرين من شهر اذار سنة ١٦٤٨ . وقد اختار بطل المغامرة تلك الليلة ، وهي ليلة عيد البشارة ، لانه عرف ان حنة دوتريش الملكة الوصية على العرش ، لن تكون خلالها في باريس بل ستترحل الى شارتريس لتفي نذراً قطعته على نفسها . وتلاقى المغامرون في الموعد المعين امام اسوار الدير ، وكان الجميع مقنعين ما عدا شارموي وسانت انج اللذين بدا لهما ان من الجبن اخفاء شخصيتيهما . وكان الليل مظلماً ، والحي ساكناً ، وقد ساد الصمت العميق .

وكان سانت انج قد اخذ على عاتقه مهمة اقتحام البابين الضخمين المنيعين بنسفهما بالبارود ، واحضر لهذا الفرض صاروخين خليقين بتحقيق هدفه ، فدنا من الباب الاول ووضع الصاروخ في اسفله واشعله ، فانفجر محطماً الباب ، ناثراً اشلاءه في الفضاء ، مرسلاً دوياً عالياً مخيفاً . ثم هرع الى الباب الثاني واشعل الصاروخ الآخر فلم ينفجر ، ولم يكن لدى سانت انج غيره ، فحار في امره وتشاور مع رفاقه ، فأجمعوا على تسلق السور ، وبادروا الى تحقيق عزمهم فوقف بعضهم على اكتاف بعض ،واستعانوا بانشوطة كانت معهم ، فلم تنقض دقائق معدودة حتى تسلقوا السور ثم هبطوا منه الى البستان واصبح الدير عرض اعينهم وسمعوا حركة داخله ،وشاهدوا انواراً تشتعل فيه ، وتنتقل سريعاً من نافذة الى اخرى ثم تنطفىء .

ذلك ان راهبات الدير كن قد افقن على صوت الانفجار المريع ، وهرعن مذعورات يتساءلن عما حدث ، ثم شعرن بحركة مريبة على السور ، وبوقع خطى غريبة في البستان ، فأيقن بان خطراً جسيما يتهددهن ، واخذن يجرين في انحاء الدير شبه عاريات يردن النجاة بنفوسهن ولا يعرفن للنجاة سبيلا .

وافاقت الآنسة سانت كروا مثلما افاقت الاخريات ، فلم تبطىء حتى حدثها قلبها بأنها هي المقصودة من هذه المغامرة التي

لا يجرؤ على القيام بها غير رجل دني. كالضابط شارموي الذي يريدها زوجة له والذي حاول قتل خطيبها، واعتقال امها، وهدد بخطفها. وقد جاء الآن لتنفيذ جريمته، مقتحماً في سبيل آمن بيت ومنتهكاً اقدس مكان . .

استبد الرعب بالعذراء الطاهرة، وذهب الجزع بنفسها كل مذهب، فوثبت من سريرها بقميصها الليلي وهي ترتجف، فقد كانت مريضة بالحمى ثم عصفت بها حمى مجنونة اشد وطأة وهولا.

وما كادت تغادر غرفتها حتى بصرت براهبة صغيرة السن فاستنجدت بها، وكانت الراهبة الطفلة تبحث عمن تستنجد به ولكنها ما كادت ترى اضطراب سانت كروا وجزعها، وتعرف انها هي المقصودة من هذا الهجوم، حتى نسيت خوفها ولم تعد تفارق ضيفة الدير المريضة المرتعدة . .

هبطت الفتاتان السلم فوجدتا الباب مقفلا، فعادتا ادراجهما الى الطابق الاعلى، ووجدتا سلماً يؤدي الى غرفة المؤونة، فارتقتاه اليها ووقعتا هناك على سلم آخر يفضي الى حجرة صغيرة في اعلى المنزل فصعدتا اليها، وجذبتا السلم اليها واغلقتا الباب عليهما، وجلستا ثمة بين اكوام الفحم والحطب تبكيان في صمت .

وفي الدير المروع، كان شارموي وصحبه يبحثون عن ضالتهم محطمين الابواب، مبعثرين ما يقع تحت ايديهم، متعرضين لراهبات الدير بالاهانة والفظاظة والقسوة، والبستاني الخائن يرشدهم من مكان الى آخر حتى بلغوا غرفة الفتاة فوجدوا بابها مفتوحاً ولم يجدوا للفتاة أثراً . . جمع شارموي ثياب « زوجته » وحاجاتها في حقيبة كبيرة، وحملها ومضى يبحث في الغرف الاخرى .

ولاحظ البستاني ان السلم المؤدي الى غرفة الحطب قد اختفى فخامره الشك وجاء بسلم آخر فصعد عليه واخذ يدفع الباب المغلق بكتفيه فما لبث ان ازاحه وازاح من فوقه الفتاة التي كانت تضغط عليه بكل قوتها . . وصرخ الرجل فرحاً بانتصاره، ونادى شارموي :

— الي ايها الاصحاب، لقد امسكنا بها ! وهرع الجميع وانقضوا على الفتاتين المذعورتين في الغرفة الصغيرة . . كانت الآنسة سانت كروا منكمشة في احدى الزوايا، لا يستر جسدها العاري سوى قميص رقيق، وهي ترتجف من الحمى، والخوف، والبرد، والعار .

وشد ما قاسى المجرمون من عناء حين ارادوا حملها من مكانها عنوة . فقد كانت تتشبث بكل ما تقع عليه يداها، كما تشبثت الراهبة الصغيرة بها تريد انقاذها . . ولم يستطع اولئك الرجال السبعة فصل الفتاتين احداهما عن الاخرى، الا حين مزق احدهم ثوب الراهبة، فالتفتت بحركة غريزية لتستر جسدها، فحملها والقاها بعيداً عنها .

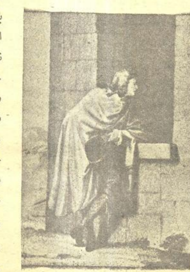
وبعد صراع عنيف استطاع المجرمون انتزاع سانت كروا من كومة الحطب، وحملها من يديها وقدميها ورأسها واخراجها من تلك الغرفة . . وكان شارموي يعتذر لها خلال ذلك عن اضطراره للالتجاء الى هذه الطريقة العنيفة ليحظى بها، مبرراً فعلته بحبه لها . . ولكنها كانت تأبى ان تجيب او تنظر اليه .

ووصلوا بها الى البستان، وهي لا تزداد الا مقاومة واستماتة في الدفاع عن نفسها، فاحتدم غضبها واخذوا ينهالون عليها ضرباً بايديهم واقدامهم وعصيهم، كلما ابدت مقاومة جديدة، حتى انتهكت قوتها وتمزق جسدها . . ولكنها برغم ذلك لم تستسلم.

وحين بلغوا أسفل السور اعترضتهم عقبة جديدة، فان الفتاة أبت ارتقاء السلم، وعبثاً حاولوا حملها على ذلك بالتهديد او بالقوة وقد بلغ من شراستهم انهم جربوا رفعها من شعرها لارغامها على الصعود، ووضعوا فوهة احد مسدساتهم على صدغها مهددين اياها باطلاق النار . وعندما عجزت جميع هذه الوسائل عن تحقيق بغيتهم عمدوا الى شد وثاقها ثم حملها احدهم على ظهره واخذ يصعد بها درجات السلم، ولكنه ما كاد يرتقي بضع درجات حتى تحطم السلم تحت ثقلها ووقع الاثنان على الارض . .

وكان الوضع يتحرج شيئاً فشيئاً، فان الصاروخ الذي نسف باب الدير لم يوقظ سكانه وحدهم، بل ايقظ سكان الحي، فأطلوا من نوافذهم لمعرفة ما حدث فاذا بحركة وجلبة غير طبيعيتين فأدركوا ان دير بنات الله قد تعرض لخطر مداهم، وهرعوا نحوه متسلحين بالعصي والسكاكين والسيوف . وفي هذا الوقت نفسه

الضابط دو شارموي



اخذت اجراس الدير تقرع قرعاً عنيفاً مثيراً . . ان بنات الله ينادين . ان بنات الله يستغثن . وقد لبى نداء الاستغاثة حشد كبير تجمهر حول باب الدير وامام اسواره ، وتعالت جلبة هؤلاء الناس ، وارتفع صياحهم ، واخذوا ينذرون من في الدير ويتوعدونهم . وسمع شارموي وصحبه صرخات الانذار والوعيد ، فتولاهم الذعر ، واخذ كبيرهم يحثهم على الهرب قبل ان يبطش الناس بهم .

ولكن كيف يستطيعون الهرب ، وهم لا يستطيعون الصعود بالآنسة دوسانت كروا الى السور؟ ايتركونها في الدير وقد عانوا في سبيل اختطافها ما عانوا ، فيتخلى الضابط العاشق بذلك عن المغامرة التي عرض بها نفسه للهلاك ، وعن الفتاة التي تدله بحبها ، ويتخلى عن الثروة المنتظرة ؟!

لقد كان عزيزاً على شارموي ان يتخلى عن هذا كله .

وكانت الفتاة قد استطاعت ، في تلك الفترة من التردد والحيرة ان تتحرر من وثاقها ، فعمد رئيس العصابة الى شد وثاقها من جديد بقوة وعنف اكثر من قبل ، ثم كم فمها وصعد الى اعلى السور مع سانت انج ، وهما ممسكان بطرف الحبل المعلقة به ، واخذا يشدان الحبل بكل ما يستطيعان من قوة ، ولكنها ما كادت تبلغ حافة السور ويتخليان عنها ، حتى تركت نفسها تسقط الى ارض البستان ، مع يقينها بانها انما تتعرض بذلك الى خطر الموت .

ولم يبق بعد ذلك مجال للتفكير في تجديد المحاولة . . فان الجمهور المحتشد في اسفل السور كان يتعاظم عدداً ويزداد هياجاً ، وما كاد يرى الرجلين في اعلى السور حتى تعالى صياحه واخذ يرشقهما بالحجارة ، ثم دوى طلق ناري مصوب نحوهما ، وتبعه طلق آخر .

كان واضحاً ان المغامرة باتت خطرة جداً ، وما لبث شارموي ان اعلن لسان انج وجوب التخلي عنها ، وغدا الهرب هدف المجرمين الاول ، ولكن كيف يستطيعون الهرب ، والجمهور الساخط الهائج يملأ الشارع ، ويسد عليهم منافذ النجاة ؟ صرخ شارموي في اعوانه :

— عبئوا مسدساتكم واطلقوا النار على الجمهور المحتشد !

واطلق المغامرون النار على الجمهور فسقط اربعة من افراده مضرجين بدمائهم ، وتولى الذعر الآخرين فتفرقوا وتراجعوا ، واخذ بعضهم يولي هارباً . . واغتنم المعتدون هذه السانحة التي ساد فيها الهلع والفوضى ، فلاذوا بالفرار ، منهم من زحف على السور ليهبط بعيداً عن الجمهور ، ومنهم من بحث عن ناحية مظلمة ليهبط فيها ويتوارى عن الانظار . ومن عجب ان احداً منهم لم يقع في ايدي المحتشدين الهائجين ، وان هؤلاء لم يعرفوا واحداً منهم ، سوى شارموي وسان انج ، اما الآخرون فكانوا مقنعين ولم تستطيع ظلال الشفق ان تبدي معالمهم وتكشف عن حقيقتهم .

وتحدثت باريس كلها صبيحة ذلك اليوم ، عن هذه الجريمة الفاضحة المنكرة ، ونسجت حولها اشتات الاساطير ، وتوافد الناس الى الدير لتعزية بنات الله ومواساتهن ، واقبل الاطباء لمعالجة الآنسة دوسانت كروا التي كان جسدها مثخناً بالجراح والرضوض واشتدت وطأة الحمى التي كانت تعيث فيه .

ودهشت الملكة حنة دوتريش والدوق دورليان ، لجرأة شارموي ودناءته ، وعرفا ما أثارت مغامرته من سخط عظيم بين جماهير الشعب فأعلنا ان هذا الضابط الذي كان يتمتع بعطفهما قد فقد هذا العطف ، ولن يلاقي اية حماية منهما ، وهما يودان ان يحل به العقاب الذي يستحقه .

وكان النائب العام قد شرع بالتحقيق في هذه القضية ، فاستمر هذا التحقيق شهراً كاملاً ، وفي الرابع من نوار سنة ١٦٤٨ اصدر برلمان باريس قراراً يقضي بتعذيب شارموي وسانت انج ورفاقهما حتى يلاقوا حتفهم . . ولكن المجرمين كانوا قد غادروا الاراضي الفرنسية ، فلم يقبض على اي منهم . وقد تنقل شارموي وسانت انج بين الفلاندر واللوكسمبورغ حتى نسيت جريمتهما واشتغل الناس عنها بالاضطرابات التي كانت تعم وطنهم بين حين وآخر ، فرجعا الى باريس دون ان يتعرض لهما احد ، وما لبث شارموي ان انتظم في الجيش مرة اخرى فقتل في الرابع من تموز سنة ١٦٧٤ اثناء معركة شانتيم بدوقية باد .



دو سانت كروا وقد اصبحت المركيزة دو مونتابير

اما الآنسة دو سانت كروا فقد ظلت في الدير حتى سنة ١٦٥١ ثم غادرته لتتزوج لويس دو ليسبار مركيز دو مونتاتير . وتنجب منه عدة اولاد .

ولك الساعة التي انت فيها

مترجمة عن الانجليزية

بقلم مبارك ابراهيم

فلانة سيدة عجوز قد تقدمت بها السن ، ووهن العظم منها . وقد تزوج اولادها وبناتها جميعاً ، ومات عنها زوجها منذ سنين . وهي الآن تحيا حياة التلكع . تحاول ان تملأ — كما يقولون — اوقات فراغها .

وقد قالت لي منذ ايام ، وكأنها كانت تتعمد ذلك القول : انت تعرف اني ظللت طوال حياتي أعيش في هذه الدنيا وكأني على سفر . وكنت دائماً اشبه ذلك الرجل الذي يمضي ليلته نزيل فندق او خان ، ويقول فيما بينه وبين نفسه : ان بقاء ليلة ليس يدعو المسافر الى ان يحل عن امتعته الوثاق .

وكم كانت في نفسي حاجات اريد قضاءها ، وقد ظللت اقول لنفسي : سوف اقضي تلك الحاجات ، ولكني لم افعل ذلك ابداً . . وما ان سمعت حديثها حتى مر بخاطري ما يحياه كثير من الناس من حياة الترقب والانتظار قبل ان يحلو عن امتعتهم الوثاق . وهم يقولون : سوف نفعل كذا وكيت عندما يشب اطفالنا عن الطوق ، او عند ما نجد مسكناً أحب واوسع ، او عندما نظفر بالعمل الذي نحسنه ونتوق اليه .

او يقولون سوف نتخذ قراءة الكتب النافعة هواية وتسلية ، وسوف نتعلم العلوم بطريق المراسلة ، وسوف نوطد أواصر المودة بيننا وبين اصدقائنا .

وهكذا من مختلف الاماني والرغبات التي تعبر عنها جملة « حل الوثاق عن الامتعة » .

ولكنهم في الساعة التي يعيشون فيها لا يفعلون شيئاً . والايام تمر بهم كلمح بالبصر ، ثم تتبعها الاسابيع ، ثم اذا اجتمع من هذه الاسابيع اثنان وخمسون نقص من العمر عام كامل .

فلماذا نؤجل الى الغد ما يمر بخواطرنا واحلامنا من اماني ورغبات ؟ فالزهور على المائدة في حجرة صغيرة ضيقة تبدو جميلة انيقة كما سوف تبدو في البيت الكبير الذي تحلم ببنائه واعداده . وقد لا تجد الآن من الوقت ما تستطيع ان تستقر فيه الى البيت لتقرأ ما شئت ان تقرأ ولكنك ترجو وتأمل انه عندما يكبر الاطفال ، وعندما يلتحقون بالمدارس سوف تجد فسحة من الوقت تقرأ فيها وتكتب . ولكنك — وعمر أبيك — تستطيع ان تختلس من الوقت ربع ساعة بين آونة وأخرى تقرأ فيها وتكتب .

وفي الحق ان هناك اشياء ، وأشياء يمكن ان يستمتع المرء بها (الآن) استمتاعاً واقعياً . لا استمتاع توقع وانتظار .

ولقد كنت اعرف في بلدي طبيباً كان دائماً طوع أمر مرضاه ، ورهن اشارتهم ولكنه مع ذلك كان اذا عاد الى بيته كل ليلة ارتدى مباذله وأعد ادوات تدخينه واستقر في جلسته المطمئنة امام الموقد . ومعه « البيبة » والكتاب ، وكأنه لا يتوقع ان يطرق عليه الباب طارق . فسألته ذات ليلة : كيف تفعل ذلك وانت تعرف ما قد يجيء به الليل من استغاثات المرضى ونداءاتهم ؟ فابتسم ثم قال : لو انني انتظرت حتى استيقن ان قد فات وقت الاستغاثة والنداء لما بقي لي وقت أستمتع فيه بباهجي وملذاتي ، فأنا اختطف من الوقت ما استمتع به . واذ هو يقول هذا القول دق جرس التلفون فقام مسرعاً يلبي النداء . .

ولقد حفزني ما رأيته من هذا الطبيب الذي يعرف للحياة قيمتها ان احل الوثاق عن امتعتي . ثم ذهبت الى المكتبة فجئت بكتب ثلاثة كنت قد أعددتها للقراءة في السنين الخمس الماضية .

ثم اعددت قائمة باسماء اصحابي . كنت اختار من بينهم كل ليلة اثنين أناديهما بالتلفون لا لشيء الا لأتبادل واياهما عبارات التحية المألوفة وأقول لهما : قد خطرتما ببالي فأردت ان اسمع حديثكما العذب —

ادب ولادة ابنة المستكفي والراغبين فيها

بقلم عيسى ميخائيل سابا

في مطلع السنة ال ٧١١ م فتح مسلمة اخو الوليد بن عبد الملك بلاداً جديدة، بلاد الماء والخضراء والجمال، بلاد الاندلس، التي حاكت لبنان جمالا وبلاد الشام فراديس وجنائن، فما وطئتها اقدام العرب الفاتحين حتى تقاطر اليها جموع من انصار الامويين، يشمرون عن ساعد الجد والنشاط يعمرونها وينتفعون بخيراتها، ويطلقون على عدد غير قليل من المدن اسماء مدنهم في لبنان وسوريا وفلسطين وبينها اسماء مدن فينيقية كقرطبة وقادس، وغدا الوطن الجديد جنة من جنان الارض، فيه رفاه ونعيم وثروة وعمران، وقصور وحدائق ولا سيما قرطبة وفيها يقول احد الشعراء:

باربع فاقت الامصار قرطبة ... منهن قنطرة الوادي وجامعها
هذان ثنتان والزهراء ثالثة ... والعلم اعظم شيء وهو رابعها

في هذه الارض الخصبة بمناظرها وتربتها، وتدفق مائها وصفاء سمائها، نشأ جيل من الناس، امتد بهم الخيال وحسن التصور والابداع. وفي هذه الارض الممراح زكت الفنون والعلوم فكانت قبلة يؤمها الاربيون لارتشاف العلم والمعرفة واشتيار الادب والفن.

في تلك الارض نبغ فلاسفة وعلماء وشعراء افذاذ وشاعرات ناعمات، تلك البلاد التي كانت في بدء عمرانها دولة قوية يجمعها عصر خلفائها الامويين، فاشرأبت اليها الاعناق، ورمقتها الابصار اعجاباً واكباراً، وما عتم ان تمزقت طرقاً، وصارت دويلات صغيرة على رأس كل منها ملك او امير، ينازع جيرانه ويسطو على الضعيف طمعاً بالاستيلاء على ملكه، والضعيف طعمة القوي في كل عصر ومصر، فما من جديد، والانظمة واحدة وان تعددت الاسماء، فالويل للضعيف والمجد والرفعة للقوي، والتعظيم والتبجيل لكل همزة محتال.

تعددت الدول في ارض اندلس، واغدق كل امير على نفسه نعوت الملك مما دعا احد الشعراء الى الانشاد:

مما يزهدني في ارض اندلس ... القاب معتضد فيها ومعتمد
اسماء مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخاً صولة الاسد

وفي مدينة قرطبة ولدت ونشأت مترعرعة في احضان الملك، فتاة ممشوقة القد اسيلة الخد، خفيفة الروح، ترجع بنسبها الى عبد

ثم بدأت اخصص كل يوم وقتاً للرياضة المشي ولا يزال عندي — بالطبع — الف خطة وخطة احتفظ بها للزمن المقبل. ولكني في الوقت نفسه قد عقدت العزم على ان اعيش وأحيا!

وان كثيراً من الناس ليقضون حياتهم مفكرين في مشروعات يحلمون بانجازها. وقد لا يصح من هذه الاحلام شيء.

واني لاعرف رجلين قال أحدهما منذ سنين: اني سوف انظم اغنيات يتغنى بها الناس. وقد صحب قوله بالعمل فأصبح مؤلفاً ناجحاً.

واما الآخر فقد قال منذ سنين: اني سوف أرسم صوراً وظل هذا الخاطر امنية مستكنة، لم تكتب لها الحياة حتى يومنا هذا..

وخلاصه القول ان ليس هناك سبب حقيقي يدعو المرء لان يعيش في هذه الدنيا كأنه غريب في بلاد غريبة بل عليه ان يعيش في هذه الدنيا وكأنه في بيته وبين أهله وعشيرته الاقربين.

فحلوا الوثاق عن امتعتكم ايها الراغبون في الحياة. ذلك خير لكم من انتظار يوم سعيد قد لا يجيء ابداً..

ما مضى فات والمؤمل غيب
ولك الساعة التي انت فيها

القاهرة — مبارك ابراهيم

الرحمن بن الحكم المعروف بالداخل من بني عبد الملك بن مروان، هي : ولادة ابنة المستكفي الشاعرة الماجنة ، اللعوب الطروب ربيت في مهد الدلال ونبتت نبتة نبات الملوك ، فشدت شطراً من علوم اللغة والادب ، وتغذى خيالها في نعيم ولكنه غير دائم.

ويزعم ابن نباتة ان حجابها ابتذل بعد نكبة ابيها وقتله ، وتغلب ملوك الطوائف ، ويخبرنا انها كانت تجلس للشعراء والكتاب وتعاشرهم وتحاضرهم ، ويتعشقها الكبراء منهم ، ويضيف انها كانت ذات خلق جميل وأدب غض ونوادر عجيبة ونظم جيد ، وهي عند مؤرخي الادب ، اول من سن للنساء سنة الانكشاف والاستخفاف ، ومن المجلين في حلبة الحب والادب وهي القائلة :

ودّع الصبر محب ودّعك ... ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على ان لم يكن ... زاد في تلك الخطى اذ شيعك
يا أخا البدر سناء وسنى ... حفظ الله زماناً أطلعك
ان يطل بعدك ليلي فلكم ... بتّ أشكو قصر الليل معك

فمن نظمها هذا نترسم خفة روحها وصدق شاعريتها، وجارحة الحب العاشق الذي يشكو قصر الليل مع من أحب . على ان ما يعنينا هو اظهار ادبها والالتفات لماماً الى حياتها الخاصة وما كان بينهـا وبين الوزير ابن زيدون وقد أملى علينا ذلك بيتاها :

ترقب اذا جن الظلام زيارتي ... فاني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح ... وبالبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وما ينقله لنا ابن نباتة عنهـا قوله « كان ابن زيدون كثير الشغف بها والميل اليها ، اكثر غزل شعره فيها وفي اسمهـا ، ثم ان الوزير ابا عامر ابن عبدوس ايضاً هام بها وكلف بعشرتها ، وكان قصدهم الظرف والادب » ومن تقصي اخبارها في كتب الادب نرى جملة من الادباء يميلون الى تبرئتها من الريبة ، وأنها لم تعشق احداً ، فما تدنت الى مأثمة ، وان ما كتبته على تاجها عن يمين وشمال قد يدعو الى الشك في عفتها والطعن في حصانتها . ولكن القول وحده لا يكفي فكثيراً مـا ينظم الشعراء غزلا فيتظرفون ويقولون ما لا يفعلون ، فقولها :

أنا والله أصلح للمعالي ... وأمشي مشيتي وأتيه تيها
أمكن عاشقي من لثم ثغري ... واعطي قبلتي من يشتهيهـا

فقولها هذا لا يقدح في حصانتها لما قدمناه وان كان من فضلة القلب يتكلم اللسان ، وهذا محبها ابن زيدون يقول عنها :

وغرك من عهـد ولادة ... سراب تراءى وبرق ومض
هي الماء يأبى على قابض ... ويمنع زبدته من مخض

فانت ترى تشبيه ابن زيدون ، انها الماء الذي لا يقوى على قبضه احد ، فهي مرحة طروب ، لعوب مغناج ، تغذي روحهـا ولا تسيء الى جسدها .

ونرى ان ابن عبدوس قد زاحم ابن زيدون على حبها، وتظرف اليها وحاول استمالتها، وقد روي عنها انها مرت بدار ابن عبدوس يوماً وكانت تهزأ به كثيراً وهو جالس بالباب وحوله اصحـابه وامامه بركة قيل انها تتولد من اقذار فوقفت عليه وقالت مستعيرة قول ابي نواس :

انت الخصيب وهذه مصر ... فتدفقـا فكلاكما بحر

فما أحار ابن عبدوس جواباً وحفظت هذه النادرة واشتغل بها الناس . وبقيت ولادة على ولاء ابن زيدون الى ان فر من قرطبة الى اشبيلية وفيها يقول قصيدته العامرة ومطلعها :

اضحى التنائي بديلًا من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا وما ابتلت جوانحنا ... شوقاً اليكم ولا جفت مآقينا

ومنها :

ليسق عهدكم عهد السرور فما ... كنتم لأرواحنا الا رياحينا

هذه هي شاعرة الاندلس ولادة وقد قـالت في شعر تجيبه :

ألا هل لنا من بعد هذا التفرق ... سبيل فيشكو كل صب بما لقي
تمر الليالي لا أرى البين ينقضي ... ولا الصبر من رق التشوق معتقي
وقد كنت اوقات التزاور في الشتا ... أبيت على جمر من الشوق محرق
فكيف وقد امسيت في حال قطعة ... لقد عجّل المقدور ما كنت اتقي
سقى الله ارضاً قد غدت لك منزلاً ... بكل سكوب هاطل الودق مغدق

فمن هذه الابيات وما تقدمها تتراءى لنا حياة ولادة فنراها كفراشة الحقل لا تقع الا على زهرات تشوقها رائحتها وتطمئن اليها نفسها ، ويقال انها مالت الى ابن عبدوس فكتب اليه ابن زيدون يقول :

عيرتمونـا بان قد صار يخلفنا ... فيمن نحب وما في ذاك من عار
أكل شهي اصبنا من أطايبه ... بعضاً وبعضاً صفحنا عنه للفار

وقد عنى بالفار لقب ابن عبدوس .

ولولادة هذه شعر مجوني وهجاء مقذع غير بريء في ابن زيدون وفي الاديب الاصبحي وغيرهما مما نمسك القلم عن ذكره .

وقد دام ملك العرب في بلاد ولادة من السنة الـ ٧١١ م الى السنة الـ ١٤٩٢ فقال ابو البقاء الرندي يرثيها بقصيدة عند تقلص ظل العرب عنها ومطلعها :

لكل شيء اذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش انسان

وفي ختامها يقول :

وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج عند السبي مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... ان كان في القلب اسلام وايمان

عيسى ميخائيل سابا

استفان زفايج

بقلم مهدي عيسى الصقر

من مشاهير كتاب التراجم .. (البيوكراف) ، في القرن التاسع عشر والعشرين، أميل لودفيج واستفان زفايج بالمانيا . وكلاهما من اصل يهودي . وولد الاخير عام ١٨٨١ ونبغ في هذا الفن فترجم حياة (ماري انطوانيت) و(جوزيف فرشيه)و(ماجلان)و(كازانوفا) و(وتولستوي) و(بلزاك) و(فرويد)وقد تأثر زفايج بنظريات الاخير في علم النفس كثيراً . نرى ذلك جلياً في كل ما كتب فهو يحلل شخصيات قصصه ودراساته من الناحية (السيكولوجية) واستفان مصور بارع لا تكلف في رواياته ولا غلو في تراجمه . واسع الخيال . دقيق الملاحظة . عميق التفكير .. له قلم اذا حركه على الورق فكأنه مبضع في يد جراح ماهر على مائدة التشريح . ففي كتابه (تولستوي) ترجم زفايج حياة هذا الاديب الروسي الكبير ، ترجمة عميقة . ودرسه من جميع نواحيه . وصف لنا عيني هذا الكاتب في اربع صفحات . حلل لنا مؤلفاته قبل ان ينادي بدعوته وبعد ان نادى بها . وهل كان تولستوي نفسه يطبق عملياً ما كان يعتقد؟ ورأي الناس فيه والدين الذي كان يعتنقه ؟ وهل كان مخلصاً فيما يعتقد . وأثر الرسالة التي وردته من ثوروي مجهول . وهروبه من زوجته وولده . كل هذا بأسلوب صريح دقيق .. اما دراسته لحياة القصصي الفرنسي الكبير (بلزاك) فظلت ناقصة أكملها اصدقاؤه بعد موته . وكان زفايج من المعجبين بهذا القصاص وقال في ذلك : « ان هدفي وأملي الوحيد ، هو ان اكمل ترجمة حياة بلزاك .. لكن للاسف أراني عاجزاً عن اتمام هذا العمل . ومن الغريب ان كل الذين حاولوا ترجمة هذا الاديب . وقفوا في نصف الطريق وعجزوا عن الاتيان بترجمة كاملة عن حياة بلزاك » .

.. وقد طبع هذا الكتاب بعد ان اتمه اصدقاء استفان وانتشر في النرويج .. وترجم الى اللغة الفرنسية وطبع في ٦٤٠ صفحة وانتشر في سويسرا . وترجمت آثار زفايج الاخرى الى لغات شتى .. منها الفرنسية والانجليزية والايطالية والنرويجية والهولندية والاسبانية ولغات بلاد شرقي اوربا وقد ترجمت بعض آثاره اخيراً الى اللغة الفارسية .. ولزفايج الى جانب التراجم روايات وقصص في غاية الروعة ، نذكر منها (نداء الضمير) و(٢٤ ساعة في حياة امرأة) و(ما جرى في شباب استاذ) و(أمام الله) و(النشال) و(الرعب) . والقارىء لآثار استفان لا يشعر بوجود المؤلف بخلاف البعض من الادباء الذين يتحكمون بابطال مؤلفاتهم ويحركونهم كما يحرك اللاعب قطع الشطرنج . بل يحس القارىء وكأنه يجلس الى نافذة يستعرض منها المارة .. فكل شيء طبيعي لا مغالاة فيه . . في قصته (نداء الضمير) نرى ضابطاً في ريعان شبابه يعرفه احد اصدقائه بأسرة غنية . فيدعى الى حفلة تقيمها تلك الاسرة في احدى المناسبات . وكان الفتى قد سمع ان لصاحب الدار فتاة . فيأخذ بالبحث عنها وسط المدعوين حتى يجدها بين امرأتين كبيرتي السن ، فينحني امامها قائلاً :

— هل تسمحين لي بالرقص يا آنستي ؟ . لكن الفتاة يصفر لونها وتضغط على المائدة بأصابع مرتعشة وبحركات عصبية اذهلت الشاب ، ولم يعرف السر في كل هذا . فترك العجوزين تسندان الفتاة واعتذر متلعثماً .. وخرج حائراً لعله يجد من يحل له هذا اللغز . فعرف ان (اديت) ابنة صاحب الدار .. مصابة بالشلل . وانها لا تستطيع السير الا بعكازين . او تجلس في كرسي المقعدين ويدفعها الخادم امامه . لقد كان هذا هو السر في التغير الذي طرأ على الفتاة حين دعاها (توني) الى الرقص وهي التي لا تستطيع الوقوف على قدميها . . ويأسف الشاب لما حدث فيرسل في الصباح طاقة من الورد وبطاقة . لم يعتذر فيها خشية من ان يعيد الى ذهنها ذكرى ذلك الحادث المؤلم . بل كتب عليها اسمه وارسلها مع الورد الى (إديت) . وتتكرر زيارات الضابط الشاب لتلك الاسرة . فهو لا يجد في تلك المدينة الصغيرة التي تعسكر فيها فرقته مكاناً خيراً من ذلك المكان ولا اصدقاء خيراً من الفتاة المشلولة (اديت) التي اخذ يعطف عليها ويرثي لها ، وابنة عمها (إيلونا) وكان يحس براحة نفسية عند زيارته لتلك الدار لعلمه بان احاديثه تدخل السرور الى قلب فتاة مسكينة تحتاج الى من يدخل الى قلبها السرور .. يصف زفايج كل هذا باسلوب مشوق أخاذ حتى يصل بنا الى اليوم الذي يطلع فيه الشاب على حقيقة شعور الفتاة المشلولة نحوه .. فيروع . انها تحبه . انها تهواه وتريده حبيباً لا صديقاً فحسب . . فينسحب الشاب من ذلك القصر . فهو لم يكن يعلم ان الامر سيصل به الى هذا الحد . ولم يكن يخطر بباله ان هذه الفتاة المقعدة ستفكر في يوم ما هذا التفكير . وفي

المساء يدخل الضابط الى غرفته البسيطة ليجد فيها المليونير الكبير (هرفون كـكسفالوا) والد (اديت) الهرم الذي هدته السنون وقد جاء يتلمس منه ان يكون رحيما . فينقذ الفتاة من موت محقق فيقول الشاب دهشاً - كيف انقذها !؟ فيجيبه الاب وفي صوته رنة الم وتوسل - ارجوك سيدي لاتصدها - انك ستقتلها ان فعلت .

. . فتأخذ الشاب الشفقة باديت وبوالدها الهرم . فيعود الى زيارة ذلك القصر . وعلى مائدة العشاء تضع المشلولة في اصبعه خاتم الخطبة . فيقبلها وينصرف وكأنه في حلم مزعج ثقيل فهو لا يحب الفتاة . . ولا يمكن ان يحب فتاة كسيحة . ولو تزوجها مضحياً بشبابه لما سلم من نقد الناس له . فهم سيظنون انه تزوجها طمعاً بمال ابيها . ويرى (توني) نفسه عاجزاً عن الصمود والاستمرار في تمثيل دور المحب . . فيطلب من قائد فرقته ان ينقله الى معسكر آخر . . ويهرب من وجه (اديت) الى (جاسلو) حيث ينضم الى فرقة تعسكر هناك وبعد أيام يصله نبأ انتحار الفتاة المشلولة . .

وكان ذلك في عام ١٩١٤ بداية الحرب العالمية الاولى فيلقي بنفسه الى الميدان ويستبسل في القتال لا لانه كان شجاعاً بل لعله يقتل فيرتاح من تبكيت ضميره وتأنيب ذويه ، لكن الموت كان يفر منه فيعود من الميدان وقد منح عدة نياشين لبراعته في التدمير .

ويقول وهو يروي قصته هذه لاحد اصدقائه (وهذا ما قصده زفايج) ليس بطلاً كل من يلقي بنفسه الى الموت . . فلعل هناك اموراً تطلبت منه بعض التضحية فلم يستطع تقديمها وفر الى الموت جبناً وعجزاً لا شجاعة . اما في قصته (ما جرى في شباب استاذ) فيصور لنا استفان مرضاً من الامراض الجنسية (السادية) باسلوب بليغ رائع . معتمداً كعادته على نظريات (فرويد) في علم النفس . وفي قصته (٢٤ ساعة في حياة امرأة) يكتفي زفايج بوصف يدي شاب مقامر على مائدة القمار في ست صفحات ليعطينا بهذا الوصف صورة واضحة لنفسية ذلك الشاب ولا تتسع هذه الصفحات لاستعراض كل آثار زفايج ، لكننا نتم قصة بدأناها حين تحدثنا عن استفان هي قصة حياة هذا الاديب نفسه . . لاقى زفايج من

الاضطهاد في العهد النازي ما جعله يهاجر الى البرازيل ويقيم في (بتروبوليس) . لكن الشيخوخة والمتاعب التي لحقته من الجستابو أثرت في قواه الجسمية . فظهر ذلك واضحاً في كتابه (البرازيل ارض لها مستقبل زاهر) وكان هذا الكتاب آخر ما انتج زفايج .

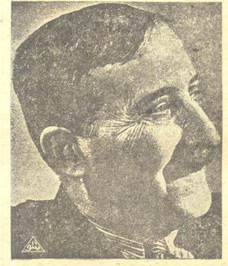
وفي ٢٣ فبراير ١٩٤٢ فتح الخادم الباب ليرى استفان ممدداً على سريره وبجانبه زوجته (اليزابث شارلوت زفايج) وقد فارق الحياة . وكان هناك كأسان على مائدة صغيرة بجانب السرير . .

وبعد لحظات أخذت تغص الغرفة برجال الشرطة وعلى رأسهم النائب العام وبعض الاطباء راحوا يمعنون النظر فيما تبقى في الكاسين . وثبت بعد الفحص ان الكاتب الكبير وزوجته قد انتحرا بالسم المعروف بـ(سيانور دوبوهاسيوم) . اما لماذا انتحر زفايج ؟ فيوضح هو ذلك في ورقة تركها على طاولة التحرير في غرفة مكتبه (اني استفان زفايج كاتب هذه الرسالة ، اغادر الحياة عن طيب خاطر محتفظاً بكامل قواي العقلية شاكراً للشعب البرازيلي حفاوته بي ومساعدته اياي ، فقد وجدت في هذه الارض ما جعلني ازداد لها حباً يوماً بعد يوم غير اني وقد انقضى من عمري ستون عاماً احس بضعف في جسمي . لقد كان هناك شيئان يحببان لي الحياة هما : انتاجي الادبي . . وحريتي الشخصية . اما اليوم فأجدني غير قادر على الاستمرار في الانتاج وأرى بعيني الحرية وقد اضحت في اوربا أثراً بعد عين . . هذه الاسباب جعلتني اودع اصدقائي متمنياً لهم فجراً منيراً بعد هذا الليل الطويل المظلم . اما انا فلا طاقة لي على الصبر حتى يبزغ ذلك الفجر . لذا اذهب مسرعاً . استفان زفايج ٢٣ فبراير ١٩٤٢

وهكذا ختم الكاتب الالماني الكبير حياته . . وابت زوجته الا ان تشاركه هذا المصير . وظلت صحف اوربا تتساءل أكانت هذه الاسباب هي التي دفعت استفان الى الانتحار ام ان هناك سراً أبى ان يكشفه هذا الرجل الذي كشف بقلمه ادق الاسرار . مما لا شك فيه ان للتعذيب الذي لاقاه ولاضطراره لترك بلاده اسوأ الاثر في نفسه . وعلى كل حال فقد ذهب هـذا الكاتب الكبير ضحية للنظام القائم على اشلاء الحرية .

بصرة - العراق مهدي عيسى الصقر

استفان زفايج



بين الحلم والتجربة

بقلم يوسف الشاروني

المساء من أول نوفمبر

بعدما اعيش ضجيج النهار والمجتمع، اعود الى بيتي وأهلي، ثم اخلو الى غرفتي اخلع عني ملابس النهار والمجتمع لارتدي لباس الليل الفضفاض فأحس راحة تشمل جسدي وروحي ويصبح كل هذا الضجيج الذي خضته اثناء النهار مجرد ذكريات وخيالات تستمد وجودها من غياب واقعها . هنا اخلق «مجتمعي» بنفسي بما فيه من اصدقاء واعداء ومجانين وعقلاء وحيوان وجماد. ففي الخلوة اصبح محور هذا الوجود الذي اخلقه وأزحمه بالآخرين لانهم من خيالي حتى ولو احسست بأنني لا املك ابعادهم .

وفي المجتمع يكون الواحد منا اقدر على ضبط عواطفه وشعوره واقدر على التحرك نحو الهدف القريب الواضح، اما حين اخلو الى نفسي فانني احيا انحطاطي وارتفاعي، فأحب الى درجة الجنون واكره الى حد الجريمة . لكن ثمة خطوة لا تنتشر من ضباب اللاشعور الى هذا الحد، ذلك حين اكتب.

فالكتابة تجد من انطلاق الروح التي كبتها المجتمع طوال النهار، تحديداً لا يشوهها لكنه يعطيها هذه الحرية العريدة التي لا تعترف الا بنفسها .

والنهار يعطيني احاسيس كثيرة، بما بين احداث قد تكون تافهة واخرى قد تكون خطيرة بالنسبة للمجال الذي اتحرك فيه، لكنها تؤثر في نفسي دائماً كأنها اهتزازات تسجل على آلة السسموجراف. وهذه العواطف التي تنشأ عن الاحداث تولد بدورها افكاراً الى جانب ما تولده من استجابات لهذه الاحداث . اما الاستجابات فاننا نقابل بها الموقف او الحدث، اما الافكار فهي تظل معنا نستطيع ان نحتضنها ونستفيد منها اذا نحن راعيناها وغذيناها وتنبهنا الى ما فيها من خصوبة وتنوع .

والواقع ان الحياة الانسانية خصبة الى اعظم درجة يمكن تصورها، خصبة بشتى الامكانيات التي يمكن ان نحقق مقداراً كبيراً منها اذا نحن بذلنا بعض العناية، والتي يمكن ان تموت اذا نحن تركناها تمر دون اكتراث . والعزلة الخصبة هي التي تجيء بعد حياة صاخبة بالآخرين او بما يسببه الآخرون من قلق وحب ونضال، هنا في العزلة نجمع هذه الانجزة الهاربة الى النسيان ونركزها في ذاتيتنا لنعطيها اللون الخاص مهما بدا هادئاً رقيقاً .

ورغم انه من الصحيح ان الاحداث التي تمر بالانسان تؤثر فيه بالضرورة، الا اننا نرى اشخاصاً لا يستفيدون من تجاربهم الماضية قدر ما يستفيد غيرهم منها . وهذا راجع الى ان هؤلاء لا يعطون انفسهم فرصة لاحصاء ما ربحوه بعد جهادهم طوال النهار . كتاجر عمل طوال النهار، من المؤكد انه ربح شيئاً ما، لكنه يهمل ان يحصي ما ربحه، بينما الآخر، دائماً عندما تقفر الطريق ويمتد الليل ويعرف ان احداً لن يعود دكانه، يفتح خزائنه المخبأة، والتي قد لا يعرف احد مكانها، ثم يعد نقوده ويحسب في دقة مقدار ما ربحه اليوم . ان كثيرين لا يعطون لانفسهم هذه اللذة لذة الاحساس بالربح . وقد طغت علينا حياتنا الاقتصادية البرجوازية بحيث علمتنا ان الربح لا يكون الا في النقود والانتاج، بينما نحن نستطيع ان نتصور ان هذا النوع من الانتاج المربح سيزول، لكن ما لن يزول، هو ذلك الربح الروحي الذي نعود به آخر النهار بعد ما بذلنا من عواطفنا وافكارنا للحياة الدامة الصاخبة . نعم، يجب ان نعود بربح في آخر النهار . يجب ان نحصل على شيء . وان نكتسب اشياء . ان اعمارنا تنمو والعالم ينمو، واجيال تموت، واجيال تولد، ونحن نندفع وسط السياق، فكيف نعود فارغين بعد كل هذا الجهد الذي بذلناه من نفوسنا واوقاتنا ولحظات حياتنا، وبعد هذا الذي بذلناه بخفقات قلوبنا وضحكاتها واعتصاراتها ؟

المساء من ٧ نوفمبر

قد أقبل الشتاء، الشتاء الرائع قد اقبل . انني احس انني ثمل . لقد اقبل الشتاء، الشتاء الرائع قد اقبل .

بالامس كانت الغيوم تغطي السماء، واحسست الشتاء يدب في ذاتي، واشد ما احب الشتاء . كانت الشمس ستغرب، فهرعت اجري، جعلت اعدو، اعدو مع الريح، حتى وصلت الى حقول خضراء بين النيل والجبل . ووقفت ارقب الشمس، كانت رائعة رائعة ! هذا كل ما يستطيعه التعبير البشري . كان هناك لون ناصع جداً، يزركش السحب العجيبة، ووراءها جمرة نار متقدة ملتهبة جمرة حمراء تشتعل كنفسي . وهذا النور الابيض الناصع رهيب، رهيب وعذب . وكانت ثمة اعمدة من الدخان تنتشر من الشمس متفرقة وراء السحب كأنما هي اجنحة من لهيب تحرس الغيوم العجيبة كان النور ناصعاً، ناصعاً جداً، ثم ابتدأ ينطفىء . شيئاً فشيئاً، حتى بقيت منه حواش تحيط بالغيوم، الغيوم التي اصبح لونها كهرمانيا

مخملياً ، كانت الغيوم ناعمة ، ناعمة جداً ، ثم سرعان ما انقلب لونها بنفسجياً مخملياً ، لكن الحواشي كانت لا تزال بيضاء ناصعة البياض . وكان الجو دافئاً ، لم يكن بارداً ، كلا بل كان دافئاً . وكانت الشمس قد غرقت وتركت وراءها سحبا قاتمة . والقمر ، من فوق الجبل يصاعد في بطء . لم يكن في وضوحه الفاضح كشأنه في الصيف ، بل كان هذه الليلة رائعاً كنفسي ، قد التفت حوله الغيوم ، فبدا كضباب من النور ، لا معالم ولا حدود ، بل هو منتشر حتى ملأ السماء والارض بنوره العجيب .

وفي الفجر ، في هذا الفجر صحوت قبل بزوغ الشمس ، وخرجت خرجت لارقص واغني ، فالشتاء قد اقبل . كان القمر لا يزال بين السحب ، لكنني لم أر ضباب النور ، لم يكن هناك ، بل كانت ثمة سحب قاتمة ينبعث من ورائها النور ، عرفت انه وراء السحابة الكبيرة ، ، لكنني لم أره ولا رأيت ضباب النور . ومن هناك ، من وراء السحابة القاتمة كان ينبعث النور ، فكان الجو كله يسبح في سكون ، في فيض من جلال . وكان الجو لا يزال دافئاً ، دافئاً عذباً ، والغبار يتطاير ، والرذاذ يتساقط خفيفاً ، والنور في كل مكان حتى في نفسي . والشمس بدأت تعلو مرة اخرى ، كانت رائعة ، رائعة جداً . والنور الابيض الناصع ، النور الناصع عاد من جديد ، اشد بياضاً وأكثر فرحاً وتوهجاً . وذهبت الى الحقل بين الجبل والنيل ، ومر امامي بعض المارة ، لم يكلفوا انفسهم مشقة النظر نحو السماء . والجبل ، والنيل ، اكتسبا — مثلما اكتسبت — ذلك النور الناصع . لم يكن ثمة شمس ، بل نور ودفء في كل مكان .

المساء من ١٦ نوفمبر

الى موقف الناس في الحياة من تجاربهم ، موقف قراء القصص الرمزية مما يقرأون ، بعضهم — ممن لا يزالون في مرحلة الطفولة الروحية — لا يفهمون من تجاربهم التي تمر بهم سوى حوادث وحركات ، انهم لا يدركونها الا في صورة احاسيس ، اما القليلون فانهم لا يقفون عند السطح ابداً ، دائماً يعبرون هذه الاسوار الرمزية التي تحيط بالمعنى ليحيوا مع اعماق التجربة . وهنا قيمة الذات ، فليس من الضروري ان يكون كاتب القصة قد قصد شيئاً على الاطلاق غير مجرد التعبير ، لكننا اذا اقحمنا ذواتنا في القصة فقد نستطيع ان نستخرج منها معاني ما قصد اليها الكاتب حين دون سديه .

ان داءنا هو اننا نباتات شيطانية ترعرعت في بيئة جرداء عاطلة . نحن عصاميون ، كونا هذه الثروة الروحية الضئيلة بجهود جبار ، وكفاح مستمر . ليست العبقرية هبة ابداً ، الا ان تكون هبة الرغبة في النمو والكفاح . انها ذلك المجهود المتواصل لتكوين عادات التفكير الدقيق ، والاغارة على الحدود ، ومعاناة التجارب انها ذلك الانهاك المتواصل لخلق عادات الملاحظة والتعمق والتعبير .

انني هنا احس ان الانسانية كلمة مجردة اكتب لها . ذلك هو ما فعله كل انسان كتب اعترافاته ، انه جعل من الانسانية قسيسه . انني اذ اتصارع مع كل هذه الانفعالات والمخاوف والآمال انما اشبه هؤلاء المتصارعين مع الوحوش ايام الرومان ، كل الفرق بيننا ، هو اننا اليوم نذهب لنعرض صراعنا على الناس ليتلذذوا برؤية دورنا الرهيب حتى تفترسنا الوحوش بين هتافات النظارة وضجيجهم .

لقد ذهبت بالامس الى فيلم « اغنية برنادت » واعجبتني فيه فكرة الحبل بلا دنس ، التي كانت تشير في القصة الى مريم العذراء . فقد عادت بي هذه الجملة الى الحياة الفنية ، وهل من الممكن ان يكون هنا ثمة حبل بلا دنس ؟ هل من الممكن ان يظهر بين الفنانين « مريم العذراء » فيلد عملاً عبقرياً بغير ما دنس . واعني بالدنس هنا ذلك الالم الخطير الذي يعانيه الفنان عند اتصاله بالموضوع الخارجي عساه يلقح فكره ويخصب عواطفه . ذلك هو الدنس ، حين تختلط بالعالم المزدحم بالخطيئة والالم ، حين تمتزج بالوحل والتراب من اجل الحصول على فكرة ؟ هل ثمت مجال لحدوث المعجزة هنا ؟

المساء من ٢ ديسمبر

منذ شهور وأنا مندفع في رحلتي نحو الداخل . وهذا الرحيل نحو الداخل اشد ما يثير في جواً سحرياً ، جواً شرقياً رائعاً . وفي هذا الرحيل ، في هذا التقهقر نحو العصور الجيولوجية الاولى للنفس ، اصطنع رموزاً لاتحدث بها عن ذلك العالم الاسطوري اننا نخلق الاساطير لعالمنا الروحي ونحن نوغل في مجاهله فرحين بكل اكتشاف نعثر عليه بين طبقات غطاها زمان من اهمال الناس وكثافة نفوسهم .

انني اقرأ في تدبير المتوحد لابن باجه ، واقرأ كلماته في لذة وفي متعة وارتياح . احس اللذة في هذه المشاركة الروحية التي تربطنا معاً ، واحس المتعة حين ادرك ان نفسي تختلج بأحاسيس وافكار اختلج بها فكر منذ اكثر من ثمانية قرون . وأحس الارتياح حين ارى انني لست وحدي في تجربتي في الحياة ، لست متوحداً هنا . . ان لي رفقاء . وانني لاستطيع ان اقرأهم في الماضي وأحسهم في المستقبل . انهم يحسون ان الحال التي يصلون اليها بعد مشقة وعسر لا يستطيعون اخفاءها لما لها من البهجة والسرور واللذة

والحبور كما يقول ابن طفيل في قصته حي بن يقظان ، انهم يعانون حتى يحصلون ويعانون حين يقدمون او يتألمون حين يرفضون، ويظلون في حزنهم وألمهم مختلطاً بتلك البهجة واللذة اللتين حصلوا عليهما .

انني اجد عزاء عميقاً في هذه الفلسفات ، انا لا اقرؤهـا بل احس انني عشتها من قبل وأعيشها مرة اخرى . لكم نفرح حقاً حين نجد انساناً عاش تجربتنا ولو كان من اهل الماضي الذين تحولت أجسادهم تراباً . انا نحس ان هناك مخلوقاً قد احس احساسنا فاستطاع ان يشاركنا آلامنا لانه عاناها ومن ثم يستطيع ان يعرفنا ويحبنا ولا يمكنه ان يكرهنا ابداً . وهنا تشعر ان الزمان لا وجود له ، فوجوده في الماضي لا يقلل اطلاقاً من فرحة هذه المشاركة . وكل تعبير عظيم هو الذي يعيد اليك الثقة بنفسك وبالحياة وبالوجود .

ان المعرفة سلاح ذو حدين ، فهي تسبب سعادة من ناحية وشقاء لا نهاية له من ناحية اخرى . وهنا يبدو المستوى الروحي المغري الخطر ، كهؤلاء الآلهات السمك اللاتي كن يغنين في جزيرتهن عند عودة اوليس من حروبه ، كان غناؤهن عذباً وجميلاً ، لكن الويل لمن يقترب منهن . فالمعرفة تربض سعادتها في مجرد الرغبة فيها والحلم بما يمكن ان تتأدى بنا اليه ، ولكنه الشقاء الكبير الذي نحصل عليه في النهاية . وتلك هي قصة آدم عندما أكل من شجرة المعرفة .

ونحن نقفز في اندفاع كي نعلو درجات السلم الممتد حتى اللانهاية ، ونظل نعلو ونعلو حتى نجد انفسنا غير قادرين على العودة الى ما كنا عليه ، فرادى وقلائل . بل كل يصبح وحيداً وحدة لا يسعد بها لكنه لا يستطيع ان يغادرها . ما اشبه ذلك بالاسكندر المقدوني الذي غزا العالم كله ثم بكى لانه لم يجد بلاداً اخرى يغزوها ، وبهذا اعلن المقدوني بطولته .

المساء من ١٠ ديسمبر

نعم

هذا يحدث . . نعم انه يحدث ،

يحدث ان يلتقي طريقان ، ربما يبدأ أحدهما من مدينة عظيمة والآخر من مدينة حقيرة ، لكن يحدث ان يلتقيا ، لحظة واحدة فحسب ، ربما بالقرب من غدير ، او عند ظل شجرة وارفة ، او في مهب حقل من الورود ، او حيث يعبر العاشقون في طريقهم الى غابة هادئة ، ورغم هذا فانه يحدث ، نعم انه يحدث ان يفترق الطريقان بعد هذا اللقاء ، ويمضي . . ربما احدهما الى مدينة عظيمة والآخر الى قرية حقيرة .

ويحدث ان ينمو الجنين في بطن امه ، تغذيه بدمائها وتمنحه حياة من حياتها ، ثم يصبح رضيعاً تعطيه ثدييها وتقبله بدموعها ، ثم يحدث ان تترقب اولى خطواته وان تفرح بأولى كلماته وان تضمه الى صدرها كلما اقبل فرحاً او خائفاً ، ويحدث كذلك ان يحبها الطفل وان يناديها كلما اصابه مكروه صارخاً : اماه ، وان يردد في كل مساء . تلك الصلاة التي علمتها له ، ثم يحدث ان ينفصل الاثنان ، ربما لا يعود احدهما يعرف الآخر ، ويصبح الواحد اثنين الى الابد . وكأنما ثمة هوة بين اتصال الامس وانفصال اليوم استطاع الزمان وحده ان يعبرها بعبقرية شيطانية .

ويحدث ان تجيش نفس انسانية برغبة او خلجة ، ربما صاحبة ظلالها منذ الطفولة وهو لا يزال يحبو ، وربما اتضحت له ذات لحظة حين مرت به لفحة من عطر قديم يعرفه ، ثم يحدث ان تنمو هذه الرغبة ممتصة من كل لحظة من لحظاته ، ثم تبدأ هـذه الرغبة في الانفصال عنه في عمل ما ، لو كان فناناً ربما كان قصة اوقصيدة ، ثم يحدث ان يمر الزمان واذا بنا نحتاج الى شيء من الاجهاد كي نتذكر كيف كنا وهذا العمل شيئاً واحداً ، فقد انكرنا وانكرناه ، بل ربما اصبحنا نخجل منه او هو يخجل منا لمجرد ان يقال لاحدنا اننا كنا واحداً من قبل .

هذا يحدث دائماً ، كل يوم ، في كل لحظة : ان يصبح الواحد اثنين الى الابد . . ويحدث ان الانسانة التي كان ظلها ينمو شيئاً فشيئاً مع نمو قلوبنا ، والتي بدأت رغبة عميقة مختبئة من نفسها في اعماقنا ، ثم اتضحت ذات يوم في وشاح حلو . . الانسانة التي مزجنا مستقبلها بمستقبلنا وجعلنا هدف ماضيها وماضينا تلك الوحدة التي اصبحت بيننا ، الانسانة التي ضغطنا على يدها في لحظة حنان وتطلعنا الى عينيها حين خفقتا ومسحنا دموعها بدموعنا ، نعم يحدث ان ينطفيء كل هذا والا يكون مصيرنا الى مصير الطريقين والام وابنها والفنان وعمله ، ويحدث انغرق في قسوة هذه القيود الحريرية التي نسجناها حول أنفسنا في لحظة أخلصنا لها والفينا فيها كل ماض وكل مستقبل . ويحدث أننا نستطيع بعد هذا أن نسير ، وأن نصر في جرأة على ان نمضي مبتعدين نحو اراض جديدة وشموس جديدة لهذا تتدفق الانهار وتتشعب الطرق .

تلك هي آلامنا نحن البشر ، ولهذا نحن وجدنا النوع الذي يتعذب ان لنا وجودين : وجود روحي يتطلع نحو المجهول ، لكن له كذلك عيوناً لا تهدأ دائماً تخترق كثافات الماضي باحثة عن جرح أو ذكرى ، ثم وجود واقعي لا يعرف الا الحسم والبتر . ونحن

الظفر الصبيغ

«.. الى ذات المانيكور الملتهب..»

●

قامت .. الى قارورة محمومة الرحيق
طلاؤها الوردي .. هف الكرز الفتيق
.. واستلت المبرد من غمد له رقيق
ينحت .. عاج ظفرها المدلل النسيق

***

وغرد المقص .. فوق المرمر الغريق ..
يحصد في نقلته نحاتة البريق
ويأكل النور الذي تاه عن الطريق ..

***

واهتزت الريشة .. ذات المقبض الانيق
باهرة .. ماهرة فنانة الخفوق
تترك بعض كبدها للناحل المشيق
وتفرز الغروب .. الف جدول هريق
اين تغطين .. أفي الاناء .. أم عروقي ..

***

هنيهةً .. فالسلّمُ العاجي .. في حريق
عشر شموع اوقدت في معبد عتيق
لا تستري اليد التي حروقها حروقي ..

***

يا ظفر .. يا وردي .. يا سجادة العقيق
ان كفرت سيدتي بعهدي الوثيق
فقل لها انك قد رضعت من عروقي .

انقرة — نزار قباني

نتعذب في هذه الارجوحة الجهنمية : ما بين اتصال في الروح لا يزال وانفصال في الواقع بتار . من هنا تنبع آلامنا : اننا لا ننسى وان افترقنا ، وليست لدينا هذه العبقرية التي بها نغمر الماضي جميعه في لجة الحاضر ، اننا أحياناً ما نحب أن نحتفظ بالماضي في مكانه بغير أن يختلط بقلق الحاضر واضطرابه .

فهذه الثنائية التي نحيا فيها : ثنائية الاتصال والانفصال هي ينبوع آلامنا . أما حيث يتحقق ثمة اتصال مطلق أو انفصال مطلق فلا ألم ولا عذاب . ولكن الحياة تهيب بنا أنها سلسلة من الانفصال حيث يبكي ملايين البشر : من هؤلاء الذين اضطروا أن يبيعوا كوخاً عزيزاً عليهم كان كل تراثهم ، ومن هؤلاء الذين سلبوا عملاً أو ابناً أو صديقاً أو قلباً كانوا قد أودعوه كل أسرارهم وخلجاتهم ، ومن هؤلاء الذين فقدوا شيئاً كان يذكرهم بلحظة حلوة جميلة او فقدوا خطرة جميلة شردت عنهم أو أملاً أو حلماً .. بكل هؤلاء الذين ينفصلون عن أجزاء من وجودهم يزدحم وادي الموت حيث يعبر القانون مرة والى الابد ، وهم يصخبون ويزعقون .

المساء من ٢٨ ديسمبر

روحي

معذبة بهذا الحلم الذى يتراءى أمامي دائماً والذي لا يتحقق . انني في حاجة الى قوى جبارة منبعثة من اعماق لا نهائية كي استطيع مواصلة السير . ان الطريق طويل طويل . الباب المغلق .. هذا هو السر الذي يعذبني ، هذا الرمز الابدي المجنون يدفع في شراييني صرخات تتلوى بلا منفعة .

منذ زمن بعيد خرجت ابحث عن المعنى في حياتي ، منذ خرجت أجوب الارض ، خرجت أبحث عن المعنى في حياتي ، فوجدت امامي باباً مغلقاً .

وهذا الحلم الذي لا يتحقق يعذبني ، يملأني جنوناً .. في حاجة الى قوى جبارة كي اواصل تحركي ، كي أواصل بحثي عن المعنى في حياتي . وهذا الباب الملعون لا يزال واقفاً امامي يعذبني .

والزمن يعبر في سرعة بينا أنا أتأرجح ، هذه كل حركتي في الزمان ! وانا لا أزال أحلم ، أحلم بشيء عجيب يفتنني وينقذني . وهذا الباب الملعون لا يزال واقفاً أمامي مغلقاً لا يريد ان ينفتح ولا حتى أن يرتجف .

في حاجة الى أن أجمع شتات نفسي الممزقة ، النفس التي مزقتها السنون والرؤى والاساطير والاحلام ، من أجل ان اشق طريقي من جديد ، وأجوب الارض باحثاً عن سر حياتي .

القاهرة — يوسف الشاروني

صديق الموج بيير فلوري

«... ولوحاته حتى ولو كانت بدون سفن وأشرعة ، فان سماواته وبحوره فياضة بالحياة ، انما ممتلئة بشخصيته وعاطفته.» شارل بوسان

بقلم جميل حمودي

كثيرون هم الذين صوروا البحر وحاولوا ان يبهروا عيون الناس بدقائق الحياة وعمقها ومخاطراتها بين امواجه بعد ما انبهروا هم انفسهم بعظمته وبحياة سكانه الفذة المليئة بالعمق والصفاء . الا ان الذين اجادوا التعبير عن البحر في صفائه وهياجه ، في سكونه الرهيب وثورته الرعناء ، في امتداده الى البعيد واصطدامه بصخور الشاطىء ، .. هؤلاء ليسوا بالكثيرين بل لعلهم نادرون بين المصورين . ان الصبر الذي يلزم لمعرفة كنه البحر وحياته لا يجذب كثيراً من الناس ، بله المصورين .. ؟ انه يجذب من عزم في اعماقه على المخاطرة وركبه حب المفاجآت ، واستعبده السكون المفكر .

وفناننا بيير فلوري Pierre Fleury – من هؤلاء الذين عاشوا فترات بين الامواج وشهدوها في صفائها وانبساطها تحت سماء زرقاء يبتلعها افق بعيد بعيد تملأه الوان الذهب والنحاس وتقفوها في ثورتها وهياجها على اغبرار السماء المطبقة على انبعاجاتها واحدودابها المشمخر

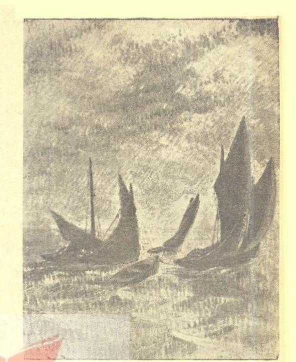
ولقد اسعدنا الحظ بالتعرف على هذا الفنان الذي يقارب عمره الخمسين سنة بواسطة فتاته الجميلة التي شاءت ان تقدم لنا اباها يوماً ونحن في سورة التمتع بموسيقى العازف الشهير دوبري – Dupré – الذي كان يلعب على ارغن كنيسة سان سلبيس . وشاء الاب الفنان ان يدعونا لزيارة مرسمه . حقاً – ايها القارىء – وانت تدخل مرسمه المليء بروائع البحر تشعر وكأن اصطخاب الموج يزف الى اذنيك نذير العواصف وزئير الريح ، ويجلب الى انفك رائحة البحر ، وتحس وكأنك تتطلع الى فضاء جديد لن تستطيع ان تجده في صور (الفواكه) ولا الصور الشخصية Portraits ولا الدواخل Les Intérieurs فان في ذلك النوع من التصوير محدودية لم تطقها روح فناننا ذي النفس الكبيرة فانطلق يبحث عن ميدان اوسع وعن وسط يعبر فيه عن عواطفه وحبه للمخاطرات ، وقد وجد ضالته في البحر وحياته المتنوعة الصامتة على فكر وتعمق . وكأنني بريشته وقد احرقتها اشعة الشمس وغسلتها دموع السماء ونشفها هواء البحر فلم يعد له ان يأنس هذه الحياة الراكدة ذات الحدود والقوالب ، هنا بباريس بين ساحة الكونكورد والانفاليد ومونمارتر والباستيل .. الخ .

قصر جزيرة بو غرب فرنسا على المحيط

ولو راجعنا ذاكرتنا عن الانطباعيين الكبار Les Impressionistes لوجدنا انهم او ان اكثرهم لم يكفهم رسم المناظر الضيقة الحدود بالمنازل والاشجار ، او رسم الجمادات Natures mortes والاشخاص وانما هربوا أحياناً كثيرة بريشاتهم الى الساحل يستوحون انسياب الشراع وانطلاق الموجة، وراحوا يتخذون من البحر متسعاً لارواحهم المتحررة المتعطشة الى الهواء الطلق . وليس اقرب الى الذهن من بسارو Pissaro وكوربيه Courbet وسيزان Cézanne ومونيه Monet وأمثالهم .

يقترب فاوري الآن من دخول العقد السادس من عمره ويعيش مع زوجته وابنيه كريستيان وميشو اللذين يحبهما ويعطف عليهما ، في بيت هادئ، قرب حديقة اللوكسمبور، عيشة بسيطة لا تكلف فيها ولا تعقيد وقد أثرت الحرب الماضية في حياته، كأكثر الفنانين الفرنسيين ، وأتلف الالمان عددا كبيراً من صوره . ومما يذكره عن احدى الصور التي اتلفت وهي صورة تمثل عودة احد قوارب الصيد في وسط عاصفة ، انها قطعت الى عدة اقسام واخذ وسطها الذي فيه القارب وترك المحيط الخشبي وما تبقى حوله من العاصفة!.

ينضوي فاوري تحت راية الانطباعيين الا ان في اعماقه ميلًا الى التخصص والتفصيل في فنه فهو يرسم لنا موجة واحدة ترتفع على يساره وتتلوى محدثة رشاشاً ابيض لماعاً يتهافت ثم يكتفي بهذه الموجة وحدها موضوعاً لصورة حجمها يقرب من المترين . ثم تراه يرسم لنا مجموعة من الغيوم المتكاثفة ليعطينا امثولة حية عن



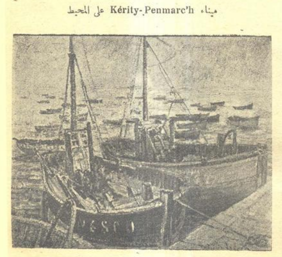
قوارب صيد الساردين القديمة على المحيط الاطلسي

ان ما امتلأ به نظر فاوري واحبه هو « السماء ، عند الفجر ، وعند المساء ، عمقها الباسم وسكانها من الغيوم الملونة والمتغيرة الالوان على مر اللحظات ».

ولعلنا واعون حقيقة فنه وحساسية انتاجه لو علمنا كيف انه عبد البحر في مفاجآته الشديدة التقلب ، والوانه ، والاشرعة المنسابة التي تظهر — كالزمن — شيئاً فشيئاً كرموز للعودة والرحيل .

وان الكلام عن فاوري لا بد ان يذكر صاحبه المصورين الذين خصوا البحر — من قبله — باهتمامهم العظيم واعطوه من روحيتهم ما احيا نتاجهم وقيمه مثل المصور الانكليزي تيرنر Turner الذي سحره صفاء البحر في سواحل ايطاليا واخذته مناظر غروب الشمس وهو يبحر على قوارب الجندول في فينيسيا . والمصور الفرنسي الشهير كورو Corot الذي كان يعرف حقاً كيف يوشي السماء باللون الذهب على ضفاف زرقتها الصافية . وبودان Boudin — الذي سماه المصور الفرنسي المشهور كوربيه Courbet (ملك تصوير السماوات) و (روفائيل السماء) .

ميناء Kérity-Penmarc'h على المحيط



(طلوع القمر بين بحر من الغيوم) او نراه يصور لنا البحر في هدوئه وامتداده مجتمعاً عند الافق بالسماء. فلا ندري بينهما انفصالا بخط او لون ، على انهما ينفصلان في مخيلتنا ويكونان في امتدادهما لانهاية حددها لنا العلم . هنا في هذا التفصيل والشرح والتخصص يمكن ان نشبه عمل فلوري بالعلم ونشبهه هو بالعالم المتخصص في البحر ولو سألناه عن الموج لرأيناه ينظر الينا اولا ليمتحن رؤوسنا ثم يذهب بعد قليل ليعرض علينا صورة يملأها اصطحاب من الالوان رائع ، ثم يؤشر : (هل ترون هذا الانخفاض هنا ؟ . انه يزيد على امتار ، هنا ترتفع الموجة الى الاعالي فيبقى مكانها خالياً الا من الهواء.لان سرعة حركتها اثرت على الضغط . ها هنا يفقد الصيادون احياناً توازنهم فيفقدون قواربهم . . وانفسهم من بعد) . ومعرفة فلوري بقوارب الصيد واشرعة البحار المختلفة لا تقل عن معرفته بالموجة . وقد عاش ١٣ سنة من عمره على قارب يجثم في نهر السين قريباً من متحف اللوفر .

ويحدثنا فلوري عن الماء . . عن الانحناءات الجميلة التي تبعثها فيه الحركة، عن التلوينات البراقة الرائعة التي تحدثها فيه الاشعاعات التي تحرق على تتابع انكساراته ، عن الهيئات التشكيلية التي تحدث على مقربة من هزة العاصفة . . هنا نرى كيف ان فلوري درس دقائق كل هذا بصبر وحب .

وعلى ان العهد بالبحر ان يكون في ايام عواصفه وامطاره باهت اللون معتم الظلال تتداخل فيه الاشكال في الخطوط ويمشي اللون على طريق الموت ، فنحن نرى في الواح فناننا بهجة وبريقاً في الالوان ! . . هنا نقف قليلًا لنفكر، ثم لنحزر انه عبر بألوانه الجميلة الجيدة التباين لا عن الواقع المنظور فقط بل الاحساسات الداخلية التي تخلقها روح الجو . . مرح الصيادين ، اغانيهم الساذجة واقاصيصهم الخرافية الزهية واجتماعاتهم الفريدة . انها حياة لا يعيشها كل الناس فهناك يعيش المرء امسيات ساحرة يملأها شحوب الافق وحلكة الشاطىء الصامتة، ترتعش في الجوانب وعلى مؤخرة كل قارب اضواء حمراء اوهكذا تبدو، وقلّ من قوتها ضباب كثيف قد غشى كل شي . ومن بين هذا يسمع من بعيد صوت صياد يعود بقاربه فيرجع الشاطىء صدى اغنية الى البعيد . هكذا يعيش فناننا وهكذا يستطيع أن يعبر لنا عن كل هذا بصدق واخلاص .

باريس

جميل حمودي


موجة عميقة في المحيط الاطلسي

افروديت

ترجمة السيدة ماهرة النقشبندي

●

تذكرنا

هذه القصة* بالاسكندرية في القرن الاول قبل المسيح. كانت فيها كريزيس من اجمل غانيات الطبقة الارستقراطية الطليقات فهي غنية وشديدة الاعتداد بنفسها. وكان فيها ايضاً ديمتريوس صانع التماثيل اليوناني عشيق برنيس ملكة مصر. وكانت النساء يلاحقنه على اختلاف طبقاتهن فلم تستهوه امرأة منهن. وعلى غير توقع احب كريزيس وحينما فاتحها بذات نفسه وعرفت من هو اجابته بكل ازدراء:

مشهد الحب في القصة

— لقد اعتدت على حب النساء الاخريات. لكن هل تدري مقدار ما يكلفك حب غانية طليقة لا تريدك؟ فأجابها محتداً.

— انا لا اطلب منك ان تحبيني. لقد تعبت من الحب ولا اريد ان احب. اريدك ان تهبي لي نفسك، وساعطيك كل ما املكه من ذهب في مصر.

— ان شعري الذهبي اثمن من كل كنوز الدنيا. لقد كرهت الذهب ولا اريده — انني اريد ثلاثة اشياء فقط.. فهل ستعطينيها؟ احس ديمتريوس بانها ستطلب المستحيل منه فنظر اليها بقلق فابتسمت ثم قالت في هدوء. — اريد مرآة من الفضة تستطيع عيناي ان ترى نفسها فيها. — لك ذلك. وماذا ايضاً. تكلمي!.

— اريد مشطاً من العاج المزخرف لاغمسه في شعري كما تنغمس الشبكة في ماء انعكست عليه اشعة الشمس.

— وماذا ايضاً؟

— هل ستعطيني المشط؟.

— بالتأكيد. تابعي الحديث.

— اريد عقداً من اللؤلؤ، اعلقه على صدري عندما ارقص لك في غرفتي رقصة الزفاف في مسقط رأسي. فرفع حاجبيه وسأل:

— هل هذا كل شيء؟ — هل ستعطيني العقد؟

— اي عقد تختارين؟ فقالت بصوتها الحنون.

— اي واحد اختار؟ هذا ما كنت اريدك ان تقول. اذن ستدعني اختار هداياي؟. — بالتأكيد.

— هل تقسم؟. — اقسم.

— باي قسم ستقسم؟ — لقنيني القسم الذي تريدين.

— اتقسم بافروديت التي صنعت لها التمثال؟.

— اقسم بافروديت التي صنعت لها التمثال. لكن لماذا تأخذين كل هذه الحيطة؟.

— كنت قلقة، اما الآن فاشعر بسرور عظيم. ثم رفعت رأسها وقالت:

— لقد اخترت هداياي. فسألها وهو يشعر بالقلق يساوره مرة اخرى. — وكيف كان ذلك؟.

— نعم — هل تحسب انني سأختار اي مرآة فضية تستطيع ان تشتريها من اي تاجر ازميري. او اي غانية مغمورة؟ اريد مرآة صديقتي باكس التي اخذت مني احد عشاقي في الاسبوع المنصرم ثم تهكمت علي بحقد في بيتها اثناء حفلة من حفلاتها المتهتكة التي اخبرني عنها تريفيرا وموزاريون وغيرهما من الشباب الماجنين. وهي تعتز بها جداً لانها كانت في يوم ما ملك رودبيس الذي كان شريك ايسوب [1] في الرق وقد



(١) ماجن اغريقي، عاش مدة رقيقاً في ساموس، وعمل في قصر قارون، اشتهر بظرفه وبمجموعة القصص التي عرفت باسمه.

* تلخيص عن الانجليزية لقصة افروديت للكاتب الافرنسي بير لويس عن كتاب «مشاهد من قصص الحب العالمية» Mason's Famous Love Scenes

اشترى حريته شقيق سابو[1] .

وانت تعرف انها غانية طليقة مشهورة ومرآتها جميلة رائعة وقد قيل ان سافو نظرت نفسها فيها وهذا سر افتتان باخس بهذه المرآة وليس عندها في الدنيا اعظم من هذا الكنز . لكنني اعلم اين ستجدها فقد اخبرتني في احدى الليالي وهي سكرى انها تخفيها تحت الحجر الثالث في مخدعها وانها تضعها هنالك في كل مساء عند غروب الشمس وقبل خروجها من الدار . اذهب الى بيتها في هذا الوقت من اليوم التالي ولا تخف شيئاً فهي تأخذ عبيدها معها . فصاح ديمتريوس .

— هذا جنون ! هل تتوقعين مني ان اسرق لاجلك ؟

— الا تحبني ؟ لقد ظننتك تحبني ! الم تحلف ؟ لقد ظننتك حلفت ! فاذا كنت مخطئة فلن تتكلم عن هذا بعد الآن .

لقد رأى انها تحاول اهلاكه ورغماً من ذلك فقد اذعن بلا مقاومة ، وبطيبة خاطر قال : — سأعمل كما قلت .

— اوه . . انني اعرف انك ستفعل . لكنك ترددت في بادىء الامر وانا افهم السبب فهي هدية ليست اعتيادية ولم اطلبها من فيلسوف بل طلبتها منك وانا اعرف انك ستجلبها لي . ثم راحت تحرك مروحتها المصنوعة من ريش الطاووس لمدة قصيرة ثم قالت فجأة :

— ولست اريد اي مشط من العاج العادي تستطيع ان تشتريه من المدينة . الم تقل لي انني استطيع ان اختار . الم تقل ؟ اذن فانا اريد ، اريد المشط العاجي المزخرف الذي تضعه زوجة رئيس الكهنة في شعرها ، انه لا يثمن من مرآة رودوبيس ولقد كان ملكاً لملكة مصرية عاشت في الزمن البعيد اما اسمها فمن الصعوبة بحيث لا استطيع ان الفظه . ان عاجه قديم جداً ولونه اصفر ذهبي نقشت عليه صورة فتاة في مستنقع تطاولت على اطرافه ازهار اللوتس وهي تمشي على رؤوس اصابعها وكأنها لا تريد ان تبلل قدميها . انه مشط جميل للغاية وانا فرحة لانك ستحصل لي عليه ، وعندي اسباب معينة تجعلني اكره زوجة رئيس الكهنة هذه . ففي الشهر الماضي ، على سبيل المثال ، اهديت وشاحي الازرق الى مذبح افروديت وفي اليوم التالي رأيته على رأس هذه المراة وقد بدا لي عملها شنيعاً فكرهتها لهذا السبب ، فالمشط سوف يثأر لي منها . فسأل ديمتريوس .

— لكن كيف استطيع أخذه ؟ .

(1) شاعرة اغريقية ، عاشت في القرن السادس قبل الميلاد ، ونفيت الى جزيرة صقلية حيث قضت بقية ايام حياتها .

— سيكون هذا اصعب قليلاً . . فهي مصرية كما تعلم وككل بنات جنسها تمشط جدائلها المئتين مرة في السنة . ولما كنت اريده غداً فعليك ان تقتلها لتحصل عليه . وقد اقسمت على ذلك ! ثم مطت شفتيها الى ديمتريوس ، الذي كان ينظر الى قدميه وواصلت حديثها بسرعة .

— وقد اخترت عقدي ايضاً . اريد العقد اللؤلؤي ذا الخيوط السبعة الذي يطوق عنق افروديت فاجفل ديمتريوس بقوة .

— هذا كثير جداً . هل تظنين انك ستتسلطين علي الى الابد ؟ . ينبغي لك ان لا تحصلي على المرآة ولا المشط ولا العقد ولا على شيء ابداً .

فوضعت كريزيس كفها على شفتيه وقالت بصوتها اللطيف الساحر الذي يفيض بالاغراء والفتنة .

— لا تقل هذا انك تعرف جيداً انك ستعطيني العقد ايضاً انني متأكدة من هذا وسوف احصل على الهدايا الثلاث . وستأتيني غداً مساء والمساء الذي يليه وكل مساء بعد ذلك . . اذا احببت . وسوف اكون هنالك في اي وقت ترغب . . لابسة ما تريد . . مزينة حسب ذوقك وشعري مصفف كما تختار . . حاضرة لأي كل رغباتك . عندما تأتي باحثاً عن الحنان سأضمك بين ذراعي كالطفل الصغير . . واذا تعطشت الى اللذة فلن اعصي لك امراً حتى ما يسبب لي منه الالم وان نشدت الهدوء فلن افوه بكلمة وعندما تسألني ان اغني لك فاسمعك يا حبيبي ما تشاء لانني اعرف اغاني كل الشعوب . اعرف غناء حلواً كخرير الجداول . وغناء عنيفاً كهزيم الرعد . واعرف بعضاً آخر بريئاً وعذباً لا تغنيه الا طفلة لامها . وآخر لا يغنى حتى في احط الاوساط وتخجل العذراء اليفانتس من تعلمه . ولا اجسر ان اغنيه الا في اذنيك .

وفي الليالي التي تسألني ان ارقص لك فيها ، سأرقص حتى يبزغ الفجر . . بثياب كاملة بيضاء صافية الذيول . . او خلف حجاب شفاف . هل وعدتك ان ارقص لك عارية ؟ سأرقص عارية اذا رغبت . . عارية ومكللة بالزهور او عارية ومزينة كالملكة يغمرها الشعر المرسل . . سوف ترى انني استطيع ان ارقص على رؤوس اصابعي . . او ممددة على سجادتي . . انني اعرف كل رقصات افروديت التي رقصتها امام يورانيا وتلك التي رقصتها ستارت . اعرف حتى الرقصات التي لا يجسر احد على رقصها . . سأرقص لك كل رقصات الحب . وعندما ننتهي من هذا نبدأ ما هو ابدع منه بيننا . ان الملكة اغنى مني ولكنك لن تجد في

قصرها غرفة مملوءة بالحب كغرفتي . سوف لا اخبرك عما ستجده فيها . فعندي اشياء اجمل من ان استطيع التكلم عنها واغرب من ان اسميها . . وستجد فيها اشياء تفوق كل ما عداها، سترى كريزيس التي تحبها ولما تعرفها ، لقد رأيت وجهي فقط لكنك لم تعرف جمال جسدي وما هو مخبوء لك فيه وكيف سترتجف بين ذراعي ويغمى عليك وفمي كم هو جميل . ! وقبلاتي يا لسحرها . . ! فحملق ديمتريوس بنظر مذهول ومضت هي تقول :

— لقد رفضت ان تعطيني مرآة فضية قديمة بينما سيكون لك شعري كفاية من الذهب بين يديك . فرفع ديمتريوس يده ليمسكها فتراجعت الى الوراء وقالت :

— غداً . فهمس قائلاً . — ستكون لك .

— او يعز عليك ان تحصل لي على مشط عاجي حقير . بينما ستكون لك ذراعي كفرعين من العاج يحيطان بعنقك . فمد يده ليربت على ذراعيها فتراجعت الى الخلف معيدة قولها :

— غداً . — سأجلبه لك . فصاحت الغانية .

— انا اعرف ذلك ، وسوف تجلب لي العقد اللؤلؤي ذا الخيوط السبعة الذي يحيط بعنق افروديت . وسوف اعطيك عوضاً عن ذلك جسمي الذي يشبه الصدفة المتفتحة في ابتسام اليك ولك مني قبلات تفوق عدد ما في البحر من اللؤلؤ المكنون .

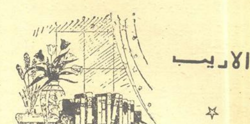
رفع ديمتريوس وجهه يستجديها . فنظرت اليه بعينيها الفاتنتين واسلمت اليه فمها الملتهب . وعندما فتح عينيه وجد ظلها الشاحب يتلاشى مبتعداً خلف حجابها الهفهاف . فمشى الى المدينة منهوك القوى وقد احنى رأسه تحت وطأة حمل ثقيل من الخجل لا تقوى الكلمات على التعبير عنه .

نهاية القصة

وهكذا فقد اعطى ديمتريوس كريزيس الهدايا التي حصل عليها بالسرقة والقتل وبالاعتداء على الاشياء المقدسة . وقد حلف لها يمين الاخلاص وبعد ان اشبعت رغباته امرها ان تظهر بالهدايا التي جلبها لها بين الناس فيلقى القبض عليها ويحكم عليها بالاعدام مما فتموت وديمتريوس الى جانبها يواسيها بما كان في مقدوره من عزاء . وانصرف يخلد جمالها في تمثال رائع سكب فيه عصارة فنه وحنين روحه ووجيب قلبه . ثم تسرق ذلك الجسد صديقتان من صديقاتها بمساعدة احد عشاقها الذين لا يحصون ويدفنونه بطقوس دينية سريعة لتجد روحها الهائمة الراحة والهدوء .

بغداد — ماهرة النقشبندي

الاديب



☆

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدوءها شهر كانون الثاني (يناير)

تدفع قيمة الاشتراك مقدماً وهي

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

في الخارج : ١٥٠ قرشاً مصرياً او ٦ دولارات ونصف

في الولايات المتحدة ١٠ دولارات في الارجنتين ٥٠ ريالا

اشتراك الانصار .

في لبنان وسوريا : ١٢٠ ليرة كحد اعلى

في الخارج : ١٤ جنيهاً مصرياً او استرليناً

او ٦٠ دولاراً كحد اعلى

☆

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

●

للاعلان تراجع ادارة المجلة

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية .

تليفون: الادارة : ٤٧ — ٩٢ — Direct. : 92 - 47 ; المنزل : ٣٧ — ٤٨ — Dcle. : 48 - 37 Tél.

●

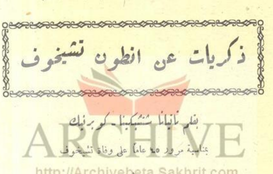
صاحب المجلة ورئيس تحريرها : **البير اديب**

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨

بيروت — لبنان

ذكريات عن انطون تشيخوف



بقلم تاتيانا شتشيبكينا - كوبرنيك

بمناسبة مرور ٤٥ عاماً على وفاة تشيخوف

نعرف الى انطون تشيخوف في موسكو ، عهد كانت صعوبات بدايته الادبية قد اصبحت ملكاً للماضي ،وكان المجد قد جاء . يومذاك كانت في موسكو حلقات جريدة « روسكيي فيدموستي »(الرسول الروسي) ، ومجلة « روسكايا ميسل » (الفكر الروسي)وهما صحيفتان تضمان بين اعضائها العديد من الكتاب المعروفين ، والاساتذة، ومن الممثلين والكتاب والرسامين الشباب . وكنت ما ازال في ريق شبابي ، وفي بداية ممارستي للادب،وعلى الرغم من الفرق الكبير في السن، نشأت بين تشيخوف وبيني صداقة خالصة . ربما كان سبب ذلك اني لم اكن ارى فيه كاتباً وحسب ، بل كنت ارى فيه ايضاً «شقيق ماشا»، ماريا بافلوفنا التي ما ازال مرتبطة معها بصداقة عميقة حتى اليوم .

وبدأ تشيخوف سريعاً جداً في اعتباري من خلصائه . فكان يدعوني ، بكل بساطة ، تانيا ، ويستفزني احياناً ، او يقدم لي نصائح ادبية، لقد كان تشيخوف طيباً جداً مع زملائه المبتدئين ، وكان يسعده دائماً ان يلمس فيهم برهاناً على الموهبة .

حين اتذكر انطون تشيخوف الذي اعز ذكراه ، اراه قبل كل شيء، كما كان في قريته المتواضعة « ميليخوفو » التي كان يملكها قبل الوقت الذي تم فيه التعارف بيننا ، بأكثر قليلا من عام .

كان تشيخوف يحب « ميليخوفو » كثيراً . فقد كان فيها « في بيته » . وقد قال فيها : « كل شي. ، هنا ، دقيق : درب صغير من الزيزفون ، وغدير بحجم البركة ، وبستان صغير ،وحديقة صغيرة ،واشجار صغيرة ، ولكن حين يتنزه فيها المرء مرة او اثنتين يتلاشى شعوره بالصغر ،فيحس بالسعة والامتداد» يحملني هذا الى التفكير باقاصيص الكاتب الصغيرة : صفحة او صفحتان ، ولكنك حين تعود الى قراءتها ، حين تفكر فيها ، «يتلاشى الشعور بالصغر » فما اوسع افق العاطفة والفكر ، وما اوسع مشهد الحياة .

كتب الي تشيخوف من ميليخوفو ، يقول : « ربيع حقيقي، براعم الاشجار تتفتح ، والطقس دافيء وطيور السنونو تزقزق ، والضفادع تتلف حناجرها بالنقيق . ليس لدي فلس ، ولكني افكر : ليس الغني من يملك الكثير من المال ، بل من يملك وسائل للعيش في روعة ايام الربيع الاولى » . كان تشيخوف يغرس الازهار بنفسه ، ويشذب اشجار الورد ، ويرش اشجار التفاح بالكلس . وكان فخوراً ببستانه . فهو يريك كل شجرة على حدة وكان يقول ، وهو يتمشى معي بين دروب البستان : « هذه الصنوبرات جميلة خصوصاً خلال اشعة الشمس الغاربة ، حين تغدو جذوعها حمراً ، وتذكر اغصانها بالعقيق . اما السنديانة «تمفر يسكي» فينبغي النظر اليها عند الغسق . حين يهبط الظلام ،سنذهب لرؤيتها !»

كان في انفساح الحقول ، وفي خط الغابة الازرق المعتم ، عند الافق ، وفي ارجوان الغروب على حقول القمح المحصودة ، روعة المنظر الروسي التي لا توصف .

هذه الطبيعة الروسية كانت موضع الفة الكاتب . وما كان ليحب طبيعة الجنوب الفخمة . فحين حمله المرض الى يالتا ، كان يتألم فيها كأنما هو في منفى . وقد كتب الي من هناك : «اني لاسأم هنا سأماً رهيباً » او « اني اضجر : احس ثقلا في قلبي ، كأني قد اكلت صحناً كبيراً من شوربا الملفوف» .

اما في ميليخوفو فلم يكن ليضجر ابداً كانت حياة آل تشيخوف تجري فيها هادئة مطمئنة . ومن وقت الى آخر كانوا يقومون بنزهات في النواحي القريبة ، او بزيارات الى الجيران . كانت ايفجينيا ياكوفليفنا الحلوة ، ام تشيخوف ، وماشا ، ذات الابتسامة الطيبة ، تدبران شؤون البيت . ولقد كان بيتاً لذيذاً .

ان ميليخوفو لم تكن المزرعة الكبيرة في روايات تورغينيف ، محاطة بحديقة قديمة ، تعمرها الكنارات ، ولا القرية التي رسمها شتشيدرين مستحضراً ذكريات رهيبة عن عهد الاستعباد ، انما هي منزل ريفي « على الطريقة التشيخوفية » كل شيء فيه جديد ، ولكن دون تقليد ، وكل شخص فيه يشتغل من الصباح حتى المساء ، سواء افي البستان ، ام في البيت . وكان تشيخوف نفسه يشتغل اكثر من الجميع ، متزوياً في بيته الصغير ،« وكر الحمام » ، الذي بناه كي لا يمنعه احد من الكتابة . فكان يبدأ عمله من الصباح المبكر . ومما كتبه تشيخوف اثناء عهد ميليخوفو : « طير البحر» « غرفة المستشفى رقم ٦ » ، « مملكة النساء » ، « الراهب الاسود » ، « الجيران » « في مسقط الرأس » ، « ثلاث سنوات » ، « بيت تحت الجالون »

« آريادن ». وبعد العمل، كان يعود الى اسرته بشوشاً انيساً، لابساً صدرته المخملية المفضلة، فيمتعنا بالجمل والتعابير التي صاغها.

وكان تشيخوف، علاوة على نشاطه الادبي، يقوم بنشاط اجتماعي عظيم، لم يكن موضع شك ابداً في المناطق المجاورة.

وغالباً ما كان يحدث ان يعود الكاتب صباحاً الى البيت من زيارة لمريض في مكان ما، بعيد بضعة كيلومترات، في الوقت الذي نكون فيه نحن قد اجتمعنا فقط لتناول طعام الصباح. ذلك ان تشيخوف كان طبيباً. وكان يعالج الناحية كلها مجاناً. بل لقد كان يشتري للمرضى كل ما لزمهم حتى الادوية على حسابه. ويكون العياء قد اخذ منه مأخذه، وتجلد من شدة البرد، فيشرب الشاي، على عجل، ويشرع بالكتابة حتى الغداء. وكان يتفق له احياناً ان يذهب دون ان يتناول طعام الغداء، فيرتدي ثيابه على عجل، بالرغم من صيحات الدهشة القلقة، الصادرة عن افجينيا ياكوفليفنا الحلوة: — انتوت، الى اين انت ذاهب، انتظر حتى تنقطع العاصفة الثلجية! — ولكن المرض لا ينتظر، يا ماما!

ولم يكن تشيخوف ابداً ليتشدق بالعبارات الضخمة، وما كان ليعلن انه « يخدم الشعب ». بل كان يكتب: ان الادارة تميز بين فئتين من الناس: دافعي الضرائب، وذوي الامتيازات. ولكن ما من تفرقة حسنة. ذلك اننا نحن جميعاً الشعب، وكل ما نفعله من خير، فهو للشعب».

وبالفعل، فان حياة تشيخوف كلها قد وضعت في خدمة الشعب، وذلك ببساطة كلية، ودون تظاهر خداع برقة القلب. وتولى تشيخوف، برضاه واختياره، وظائف طبيب المنطقة اثناء انتشار وباء الكوليرا: وكان نشاطه يمتد الى ٢٥ قرية، و٤ معامل، ودير، دون ذكر المنازل الريفية في الجهات المجاورة. فكان يجوب القرى، ويلقي المحاضرات حول مكافحة الكوليرا، ويقدم النصائح، ويغضب، ويتحمس. وكان يكتب لاصدقائه: «ما انا الآن بكاتب، انما انا طبيب».

وكان تشيخوف يكرس وقتاً طويلاً لمسائل الصحة والتعليم العام: ويعود للكاتب الفضل بمدارس انشئت في تاليج ونوفوسيلكي وميليخوفو، وقد انشأها بنفسه، وكان يشتري لها مواد البناء. وبنى ايضاً مراكز لمواد لاطفاء الحريق في القرى. ونجح في حمل الادارة على انشاء طريق في لوباسنيا وميليخوفو. وساهم مساهمة نشيطة في انشاء مستشفى. وعلى مكتبه، الى جانب الاوراق الملأى بكتابته الدقيقة، الغريبة، ولكنها مقروءة جيداً، كانت توجد دوماً مخططات، وتصاميم، وتقارير.

وما كان تشيخوف ليحصر نشاطه في الناحية التي يقطنها. فهو مؤسس المكتبة العامة في تاغنروغ، مسقط رأسه. وقد اهدى هذه المكتبة مجموعة كتبه البديعة، غير محتفظ لنفسه الا بالكتب التي كانت ضرورية له في عمله. واخذ الكاتب على نفسه ايضاً ان يتمم هذه المكتبة باستمرار، مرسلاً اليها الكثير من الكتب التي يشتريها بنفسه، او المعطاة من قبل كتاب او ناشرين من معارف تشيخوف.

ولم يكن تشيخوف ليحب التوسع بالحديث عن نشاطه الاجتماعي. الا ان دراسة سريعة لكل ما قام به، خلال حياته القصيرة، تكفي لتكوين فكرة واضحة عن مساهمته الكبرى في حياة وطنه الاجتماعية. ففي عام ١٨٩٠، مثلاً، قام بسفرة الى سخاليه، على نفقته (بالرغم من ضآلة موارده). فقام فيها باحصاء الاهلين بشخصه، وملأ عدة الوف من البطاقات. وعلى اثر هذه السفرة فجع في الحصول على الغاء عقوبة الجلد بالسياط، هذه العقوبة التي كانت متبعة في السجن. وفي الشتاء الرهيب، عام ١٨٩٢، ذهب الى منطقة فورونيج لـ « تغذية الفلاحين ».

وما توقف نشاط تشيخوف الفوار الا حين فرض عليه المرض المشؤوم الاقامة في يالتا، حين اضطر الى توفير قواه الجسدية. الا انه، هناك ايضاً، وبالرغم من خطورة مرضه، كان يهتم دائماً بالمعلمين والطلاب المرضى الفقراء، الذين كانوا يأتون الى القرم.

ان سفر تشيخوف من ميليخوفو انتزع فلذة من قلبي، ان صح التعبير، فكنت اكاتبه، وقد رأيته مرتين او ثلاثاً اثناء زياراته لموسكو. وكنت اول من ابرق اليه، اعلنه بفوز روايته « طير البحر » في مسرح الفنون.

واني لاتذكر، بصورة خاصة، اخر مقابلة لي مع تشيخوف جاء الى موسكو في الخريف، في وقت كان الطقس فيه مرعباً. وكانت صحته تسير من سيء الى اسوأ. الا انه كان يغادر الحياة، كالفلاسفة الاقدمين، بهدوء، واطمئنان، وايمان عميق بالمستقبل: فلقد كان يؤكد، بلسان ابطاله (آنيا، وفرشينين، وغيرهما) ان الحياة ينبغي ان تكون ولسوف تكون رائعة.

بعد موته بثلاث سنوات جئت الى موسكو (ولم اكن ساكنة فيها اذ ذاك) وزرت قبر انطون تشيخوف فالتقيت هناك ببضعة شبان جاؤوا لتكريم ذكرى الكاتب المحبوب. وما هو بميت في نظر الشعب الروسي، وفي نظر الانسانية كلها.

لا ترافياتا تحت النجوم

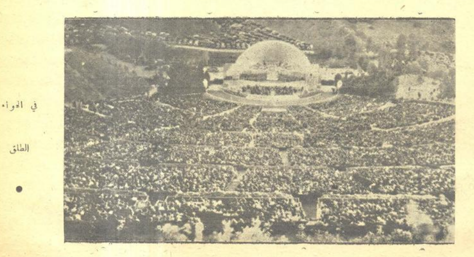
بقلم عبد الكريم الخضيري

« لا ترافياتا La Traviata » اوبرا الموسيقي الايطالي الشهير «فيردي» قدمها واخرجها « جيمس دولتل James A. Doolittle» على مسرح هوليود الشهير المسمى Hollywood Bowl وهو مسرح كبير في الهواء الطلق واقع في واد بين تلول هوليود الجميلة، وسمي Bowl لانه يشبه الاناء او القدح . والمقاعد مثبتة على سفح الجبل وقد ذكرني هذا المسرح بمسارح الاغريق القديمة التي كانوا ينحتون مقاعدهم حولها من الحجر .

يتسع هـذا المسرح لـ ١٦٠٠٠ مستمع يأتون كلهم لرؤية الاوبرات ولسماع اشهر السيمفونيات ويسمونها Symphonies under the Stares اي سيمفونيات تحت النجوم، وتقدم هذه البرامج تحت سماء الصيف الصافية .

في الساعة السابعة والنصف من مساء السبت ١٣ اغسطس ١٩٤٩ كنت اسير في شارع Highland هوليود وبعد ان قطعت مسافة نصف ميل تقريباً اذا بي امام مدخل Hollywood Bowl وشاهدت على باب المدخل كتـابة باحرف من نور تقول ان البرنامج يبدأ الساعة الثـامنة والنصف . سرت مع السائرين وقطعت تذكرة الدخول ونظرت يمنة فاذا بي ارى عدداً هائلاً من السيارات ينزل منها النساء والرجال كلهم يقصد سماع اوبرا لا ترافيـاتا في الهواء الطلق ، ثم تابعت سيري الى المسرح فاذا بفتيات حسان ينـادين باصواتهن العذبة لبيع برامج حفلات الاسبوع الموسيقية، فاشتريت واحداً وواصلت المسير فاستقبلني شاب جميل الطلعة مرتد بذلة فاخرة حمراء اللون عليها شرائط صفراء. فحياني تحية المساء واخذ مني تذكرة الدخول ، واستغربت بادىء الامر، فتحيته تحية شخص يعرفني ولكني فهمت عندما حيـا الشخص الذي جاء بعدي انه يرحب بكل قادم فعمله تحية آلاف الناس واخذ البطاقات منهم .

اخذت أصعد سفح التل لاخذ محلي ولم اكد اصـل الى المحل المخصص لي ولامثـالي الذين دفعوا اقل الاجور ، حتى كاد نفسي ينقطع لارتفاع المحل . جلست على الكرسي وما هو بكرسي بل



مسرح هوليود في الهواء الطلق

مصطبة من الخشب تحت السماء. فأحسست بالبرودة قد انتشرت في كل جسمي لان الجو بارد . ومن يظن ان في شهر اغسطس اللهاب، كما يسمى في بغداد، يحتاج الانسان الى ملابس الشتاء . وما ان انتهت المسرحية حتى شعرت بنفسي وكأنها قطعة من الثلج بالرغم مما شربته من قهوة ساخنة .

ها هم المستمعون يأتون زرافات وازواجاً ووحداناً وكل يحمل تحت ابطه بطانية ووسادة، لكي يجلس على الوسادة ويتقي البرد بالبطانية .

مددت بصري الى الامام، فاذا بالمسرح يبعد عني مئات الاقدام فأخذت امسح نظارتي كي استطيع رؤية الاوبرا من هذا البعد الشاسع، اما جارتي، وكانت فتاة جميلة، فقد جلبت معها منظاراً لكي ترى الاوبرا مقربة. جلت بالطرف حولي فاذا بتل عال ورائي وهو جبل صخري قليل الارتفاع وآخر مثله عن شمالي وثالث يبعد عن المسرح بمسافة ليست بالبعيدة . تضيء هذا المحل الواسع ثمانية مصابيح كهربائية كبيرة . وأرى فوق رأسي انواراً حمراء تغمر السماء وتتغير الى الوان اخرى كأنها الانوار التي توجه الى الطائرات وقت الحرب، وما هذه الا اعلان عن المكان الذي نحن فيه وهي وسيلة من وسائل الدعاية في امريكا .

دفعني حب الاستطلاع لان اجول خارج المسرح وكان لدي متسع من الوقت قبل ابتداء برنامج الليلة وعند خروجي من الباب وضع احدهم على يدي بصمة ولكني لم اتبينها وظننت انه يخدع الناس بايهامهم انه يضع اشارة، ولكن عند رجوعي رأيته يفحصها تحت ضوء ازرق فنظرت الى يدي فاذا عليها بصمة بيضاء اللون اختفت عندما ابتعدت عن الضوء الازرق. وتستعمل هذه الطريقة عوضاً عن بطاقات الخروج الموقت التي تستعمل في بلادنا في السينمات والمسارح .

وعندما حانت الساعة الثامنة والنصف انطفأت الانوار واضيء جانب من المسرح فاذا بقائد الفرقة الموسيقية يتقدم الى منصته وهو « ارج لينسدورف » ،كان قائداً بارعاً تدرب على يد « برونو والتر » و« توسكانيني » يبلغ السادسة والعشرين من عمره وقاد أوبرات فاغنر لحساب شركة اوبرا متروبوليتان وفي السنة التالية انتخب قائداً لموسيقي فاغنر بعد وفاة ارتر بودانسكي ومما يروى عن مهارة لينسدورف في قيادة الفرق الموسيقية انه عندما مرض بودانسكي استطاع لينسدروف ان يقود الفرقة لعزف موسيقى « بارسفال » بعد ان اخذ ملاحظات لمدة ساعتين فقط . وهو يقود الاوبرات الايطالية والفرنسية بكل سهولة . وقد شاهدته في تلك الليلة يقود اوركسترا هوليود بول بيديه ورأسه وجسمه فكل عضو فيه يتحرك لتنظيم تلك الاصوات الجميلة التي ابدع « فيردي » في صوغها .



الآنسة مادين كونر فارج لينسدورف وفي الوسط ارموند توكتابين

تتكون اوبرا لاترافياتا من اربعة فصول وقد كتبها «بياف F. M. Piave» ولحنها الموسيقار الشهير « فيردي Verdi » يمثل الفصل الاول بيت « فيوليتا » في باريس وفيوليتا هذه فتاة رائعة الجمال كثيرة المال، فتاة خليعة وزعت قلبها لكل الرجال، ويظهر المدعوون في بيتها في حفلة فخمة ، وكان من بين المدعوين شاب جميل اسمه « الفردو » احبته فيوليتا من اول نظرة. وبعد ان شرب المدعوون والمدعوات نخب صاحبة البيت الفاتنة أخذوا يغنون الاغاني الجميلة مع الموسيقى المنسجمة مع الغناء ، ثم اغمي على فيوليتا او تظاهرت هي بذلك لكي تخلو مع الشاب الذي تعرفت عليه الليلة. خرج المدعوون وتركوها كي تستريح ،وفي هذه الخلوة أخذت تبث غرامها الى الفردو ويبادلها هو الحب بالحب . ومن ثم يغادر المدعوون الحفلة بعد ان اطمأنوا على صحتها وفي وحدة الليل بقيت فيوليتا مؤرقة تبث شكواها الى النجوم وبينا هي تغني يجيبها صوت حبيبها من حديقة الدار .

وبعد فترة ربع ساعة ابتدأ الفصل الثاني وتظهر فيه حديقة

بيت فيوليتا في ضاحية من ضواحي باريس وليس في الدار سواها ـ ا وخادمتها . هجرت فيوليتا المدينة الى القرية كي تقترن بحبيبها وبينما هي بانتظاره يأتي والد الفردو الذي عرف بحبها من ابنه فرجاها ان تتركه، لانها ليست اهلاً له فهي مصابة بالسل ، وان تكتب اليه رسالة تخبره فيه بعدم حبها له وزواجها منه. فكتبت الرسالة مكرهة وبعثت بها مع خادمتها فلما قرأها الفتى تأثر كثيراً لهذه الصدمة .

وفي الفصل الثالث نرى فيوليتا وكثيراً من المدعوين في غرفة الرسم في بيت « فلورا » صديقتها ، وكان الفردو من المدعوين ايضاً . فعندما رأى فيوليتا هاجت ذكرياته واخذ يعاتبها على هجرها وصدها له ورمى كيس الدراهم التي صرفتها عليه سابقاً ، في وجهها فتألمت ومع ذلك فهي ما زالت تحبه حباً جماً . وبمرور الايام تزداد عليها نوبة المرض .

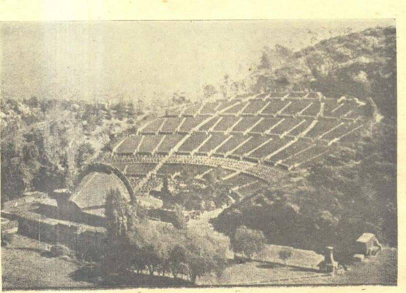
نرى في الفصل الاخير غرفة نوم فيوليتا والمسرح منار بضوء ازرق جميل وحزمة من الضوء الاصفر مسلطة على كرسي في زاوية الغرفة . وبعد ان استمرت الموسيقى بألحانها الشجية ، ظهرت لنا خادمة فيوليتا وهي ترعى سيدتها . ثم فتحت النافذة لدخول النور والهواء النقي فسمع من الخارج صوت غناء وموسيقى وكأنه يوم من ايام العيد ، فقامت فيوليتا تريد الخروج للبحث عن حبيبها ولكنها تعبة لا تقوى على الخروج واشتد سعالها فاسرعت الخادمة في طلب الطبيب فجاء وبصحبته « جورجيو جيرمونت » ابو الفردو وفي هذه اللحظة تبدل ضوء المسرح الى اللون البرتقالي . اخذت فيوليتا في اللحظات الاخيرة من حياتها تذكر حبيبها واخلاصها له وفجأة يظهر الفردو الحبيب المخلص ، وهنا ازداد المسرح نوراً ، فأخذها بين ذراعيه وهو يسمعها كلمات الغزل والحب فرجعا بذاكرتهما الى ايام الصبا والشباب . واخيراً تخاذلت فيوليتا وخارت قواها تدريجياً الى ان فارقت الحياة وهي على صدر حبيبها الذي احبته من كل قلبها ، فعصفت الموسيقى ثم هدأت وانزل الستار على هذه القصة الخالدة التي مثلت على المسرح منذ عشرات السنين ولا تزال تمثل واخرجت على الشاشة البيضاء ايضاً كما انها ترجمت الى العربية بعنوان غادة الكاميليا .

قام بدور فيوليتا « مادين كونز » وهي ذات صوت (سوبرانو) عذب حنون ، هتفت لها الجماهير وصفقت اعجاباً بصوتها وتمثيلها كما قدمت لها طاقات الازهار . وقام بدور « فلورا » صديقة فيوليتا « جين فين » وبدور « الفردو جيرمونت » الشاب الحبيب « ارموند توكتابين » وكان مائعاً في غنائه في هذه الاوبرا . امـا الاب وهو « جورجيو جيرمونت » فقام به « جون جارلس ثومس » وقد ابدع حقاً كما كان ابرع الممثلين وحصل على اكبر كمية من التصفيق الحاد .

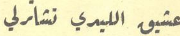
وبعد ان انتهت الاوبرا خرجت مع آلاف الناس وكان الجو بارداً فركبت اول ترام لأصل الى بيتي ونمت تلك الليلة نوماً هادئاً وانا أحلم في ترافياتا والموسيقى ترن في اذني وتسري في كل جسدي طول الليل .

لوس انجلس – الولايات المتحدة

عبد الكريم الخضيري



من روائع القصة المعاصرة



عشيق الليدي تشاترلي

بقلم جلال فاروق الشريف



في ٣ آذار من عام ١٩٣٠ انطفأ الى الابد سراج فنان كبير هز المجتمع الانكليزي هزة عنيفة لا تكاد تعدلها تلك التي احدثها اوسكار وايلد . . . ذلك هو دافيد هربرت لورنس D. H. Lawrance الذي صودرت مؤلفاته وقصائده وبتر بعضها وحجزت لوحاته الفنية ومنع عرضها .

ولد لورنس في الجزيرة البريطانية سنة ١٨٨٥ في مقاطعة نوتنجهام « وترعرع في صميم الطبقة العاملة » وكان ابوه عاملاً في منجم « ولم ترد امه عن ان تكون امرأة عامل[1] » كما يقول عن نفسه وعندما بلغ الثانية عشرة من عمره ألحق بمدرسة المقاطعة الثانوية باجر زهيد ثم غادرها بعد ان انهى دراسته وعمل مستخدماً لمدة بسيطة اصيب اثناءها بذات الرئة وشفي منها غير ان هذه الاصابة كان لها اثر بارز في صحته رافق حياته وساهم في التعجيل بايامه الاخيرة .

وقد عمل بعدها ثلاث سنوات بتعليم اطفال عمال المناجم ، ثم دخل الجامعة وكان في العشرين من عمره وتخرج منها وتفوق في امتحان اجتازه لانتقاء معلمين فعاد الى التدريس في مدرسة ابتدائية قرب لندن غير ان اصابة ثانية بذات الرئة اضطرته الى هجر التعليم نهائياً فلم يمارسه في هذه المرة ايضاً غير مدة قليلة وفي هذه الفترة الاخيرة ظهرت بوادر نبوغه الادبي .

بدأت حياته الادبية بخمس قصائد ارسلها لامرأة احبها وكانت زميلة له في التعليم وهذه بدورها ارسلت القصائد الى المجلة الانكليزية « English Review » فنشرت وفتح امامه بذلك باب التعرف على الادباء والنقاد وكان هذا في سنة ١٩٠٩ . وبعد نحو من سنة نشر قصته الاولى الطاووس الابيض فذاع صيته ودعاه استاذه واسمه ارنست ويكلي لزيارته فتعرف على زوجته الالمانية فريدا فاحبها وتعلقت به وكانت تكبره سناً ولها من زوجها ثلاثة اولاد فهجرتهم ولحقت بلورنس فتزوجا وظل مرتبطاً بها طيلة حياته .

> . . . ليس المهم عند لورنس ان يحمي الفرد حريته وانما هو في ان يعرف ما الذي سيصنعه بهذه الحرية . فالفرد عنده لا يدرك ذاته بوعيه لما يميزه عن الآخرين وانما لما يشترك فيه معهم : الا وهو الجنس .
>
> اندره مالرو

كان لورنس فقيراً ليس له من مورد الا ما تدره عليه مؤلفاته ولم يكن ليكفيه هو وزوجته ورغم ذلك فانه لم يعرف حياة الاستقرار في بقعة معينة . فاقام في ايطاليا والمانيا وفرنسا ودعي الى جزيرة سيلان فأقام فيها ووهبته احدى المعجبات به مزرعة في المكسيك فنزح اليها وظل فيها مدة ثم عاد وذهب الى اوستراليا ومنها الى اميركا وانتهت حياته على شاطىء البحر المتوسط . كان في كل جولاته لا يملك الا القليل الذي لا يكاد يفي بنفقات الارتحال ورغم هذا التنقل والتجول فانه لم يعرف المرح لان شبح الموت الذي كان يطل عليه من خلال مرض السل قد جعل حياته جدية صارمة ملأها لورنس بالانصراف الى الكتابة وكان الى جانب هذا يهوى الرسم فاقام معرضاً للوحاته في لندن غير ان السلطات اعتقلته وصادرت اللوحات لانها اعتبرتها مخلة بالآداب العامة .

تقوم نظرة لورنس الى الحياة على اساس الايمان بالفرد . فكل شيء في هذا العصر الحديث قد تآمر على الانسان،

---

(١) P. H. Lawrance. P. 4. Cathérine Carswell

فالآلة قد استعبدته روحاً وجسداً حتى شوهته، والحرب اخذت تفنيه بالملايين في سبيل مثل اجتماعية مزيفة، والمفاهيم الخاطئة والعادات قيدت ميوله وغرائزه وحرفتها حتى لم يعد هذا الانسان انساناً، لذلك كان لا بد من العودة الى الحياة الانسانية الصحيحة. يجب ان نطرح كل ما نحمله من القيم القديمة فليس هناك سوى الفرد، وبين هذا الفرد وبقية الافراد او بين الفرد والعالم هوة سحيقة لا تعبر، غير انه يوجد جسر وحيد او قنطرة واحدة يمكن ان يمر عليها الافراد ليصلوا الى مستوى واحد هو الانسانية، هذا الجسر وهذه القنطرة هي الحواس او الغريزة الجنسية لذلك يجب ان يتمتع بها الافراد تمتعاً عميقاً دون وجل او خوف، فالانسان الحالي قد اهمل غريزته ولم يضعها في المنزلة الحقيقية من حياته «وليس المهم عند لورنس ان يحمي الفرد حريته وانما هو في ان يعرف ما الذي سيصنعه بهذه الحرية، فالفرد عنده لا يدرك ذاته بوعيه لما يميزه عن الآخرين وانما لما يشترك فيه معهم: الا وهو الجنس[٢]» فالفعل الجنسي ليس حادثاً تافهاً بل هو الوسيلة الوحيدة لكي يكتشف الفرد ذاته ويحقق انسانيته. ومن هنا يجيء تمجيد لورنس للحب الجسدي حتى جعله المحور الذي تدور حوله جميع قصصه، وهو لا يهمل المرأة فيجعلها شيئاً منفعلاً اي اداة مجردة يستعملها الرجل وانما يضعها معه في منزلة واحدة فكل منهما لا بد له من الآخر ليحقق انسانيته التي لا يمكنها ان تتكشف الا بهذا الاتحاد التام الحقيقي الذي يجب ان يسعى اليه كل منهما. ولورنس يتجه في سائر قصصه نحو المرأة لكي يفهمها هذه الحقيقة ويزيل تلك المفاهيم الخاطئة عن الغريزة الجنسية، لذلك نراه في مقدمة قصته الشهيرة «عشيق الليدي كشاترلي» التي سنعرضها الآن، يقول بان هذه القصة هي لفتيات السابعة عشرة.

هذه النظرة هي التي اثارت المجتمع الانكليزي فبترت قصصه واتهم ادبه بالادب الاسود، غير ان هذه الثورة لم تلبث ان خمدت وتبوأ لورنس مكانته في طليعة مفكري العالم وادبائه الفنانين الذين عاشوا فنهم في حياتهم وكان انتاجهم فيضاً عبر عن اعمق خلجاتهم. ولقد اشتهرت جميع مؤلفات لورنس في الشعر والقصة وتجيء في مقدمتها قصة «نساء عاشقات» و«عشاق وابناء» و«قوس قزح» و«المرأة والحيوان» وختم حياته بمؤلفه الكبير «عشيق الليدي كشاترلي» الذي يعتبر في الاوج.

***

(٢) L'Amant de Lady Chaterley. N. R.F.496 édition P.8

كونستانس ريد فتاة جميلة متينة البنيان، ممتلئة صحة ونشاطاً ولدت لأب متحرر واسع الفكر، محب للفنون وعضو في الاكاديمية الملكية للتصوير وعلى شيء من الثروة، ولأم تؤمن بالاشتراكية ولا تقل عن زوجها ثقافة وتحرراً. وكان لميول الابوين هذه اثرها في تربية كونستانس واختها هيلدا التي تكبرها بعامين، فنشأتا نشأة حرة منذ صغرهما، فتلقتا الدراسة الموسيقية في «درسد» وتجولتا في روما وباريس وبرلين وحضرتا المعارض الفنية والمؤتمرات الاشتراكية. بدأت كونستانس تعرف الحب عندما بلغت السابعة عشرة وكان ذلك في «درسد». وكانت ترافق الشباب في النزهات المرحة وتعسكر معهم في الرحلات وتجد لذتها الكبرى في نجوى الغرام التي تلقى في مسامعها اما الفعل الجنسي فترهبه وتنظر اليه بشيء من الخشية. ولم يكن الشباب قانعين بهذا بل يريدون الذهاب ابعد منه فتضطرب وتتردد فهي لا ترى في الحب غير النجوى العذبة والاحاديث الخلابة ثم لم تلبث ان بدأت تسلم نفسها وتستجيب لنداء من تجد قربه لذة الحديث وجمال الصلة الروحية دون ان تأبه كثيراً لهذه الصلة الجسدية، فهي عندها عود الى الغريزة وردفعل للارتباط الروحي، وهكذا كان لكل من الاختين عشيق واضطرتا الى العودة الى انكلترا عندما نشبت الحرب العالمية الاولى، فتعرفت هيلدا على ثري يكبرها بعشر سنوات فتزوجته، واحبت كونستانس شاباً هو «كليفورد تشارلي» فتزوجته ايضاً.

كان كليفورد هذا يمثل الارستقراطية خير تمثيل، فهو لم يكن من الذين توصلوا الى مركزهم الاجتماعي بجدهم ونشاطهم كما فعل ابو كونستانس، وانما ارتفع اليه بحكم نسبه لانه انحدر من عائلة عريقة تملك قصراً متوارثاً هو قصر «وريغبي» تحيط به الغابات التابعة له والاراضي الممتلئة بمناجم الفحم التي يستثمرها العمال لحساب الاسرة. ولقد احبته كونستانس لذكائه وتفوقه الفكري ولتلك اللذة التي وجدتها في عشرته رغم انه يحمل عقلية ارستقراطية لا تنسجم مع آرائها، وتزوجته خلال اجازة شهر نالها اثناء الحرب، فنعمت معه بجمال الحب الذي رأت كل عظمته في انه لم يعر الغريزة اهتماماً كبيراً فهي امر تافه ثانوي. ولم يكن كليفورد ليفوقها اهتماماً بها بل كان يشاطرها رأيها ولا يرى في العلاقة الجنسية غير استمرار لفعل عضوي فقدت الحاجة اليه. ولم تنقض ستة اشهر على زواجها حتى عاد كليفورد من ساحة القتال مقعداً لا يستطيع الحركة قد شل نصفه الاسفل.

كانت كونستانس في الثالثة والعشرين وزوجها في التاسعة والعشرين عندما المت بهما تلك الكارثة فانزويا في قصر «وريغبي» فانصرف هو الى الكتابة والادب وبدأ يشتهر بينما انصرفت هي الى العناية به فهي تحبه كل الحب ، واخذت تساعده في كتاباته وتفرغ عليه من روحها وانوثتها ما يجعله في غبطة ونشاط . وهكذا دخلت حياتها في طور استقرار خارجي اما الاستقرار الداخلي فقد تهيأ لها في اول الامر ثم لم تلبث ان فقدته .

كانت تعتقد انها تستطيع الاستمرار في حياة على هذا النحو، ولكن كلما مرت الاسابيع والشهور بدأت تشعر بنوع من القلق يغمرها وضرب من الانقباض يتولاها فتسيطر عليها الكآبة وتحاول الانفراد بنفسها ، غير ان ما بها لا يزول . وانقضت على حياتها هذه سنتان بلغ بها القلق مداه فلم تعد تجد لهذه الحياة اي معنى فهي خالية من الهدف تجر نفسها جراً ، تحيط بها التفاهة من كل جانب ويسيطر عليها صقيع العدم والفراغ .

ويزورها ابوها ويحدثها بصراحة عما اذا كانت تنوي الاستمرار في هذه الحياة الفارغة وتظل نصف عذراء ، ولكنها لا تجيبه بشيء. ثم يزورها صديق لزوجها يدعى « مــايك » وهو مؤلف شاب ، فتجالسه وتشعر بالحنين اليه وتدعوه الى غرفتها وتستسلم الى مداعباته غير انه كان خفاً في المس لا يتيح لها الوقت لتشترك معه فهي تتعلقه تعلق الارتواء بنفسها وتستمر العلاقة بينهما على هذا المنوال فيلتقيان عدة مرات ، وتشعر نحوه بالحب ويغادرها ما ألم بها ، وتحس بشيء من الهدوء والطمأنينة بعد كل لقاء ، فتعود الى زوجها فهي لا تزال تحبه تلك المحبة الساكنة التي استحالت الى نوع من الالفة والصداقة، وتفرغ عليه الحنان الذي امتلأ به صدرها ، ثم ينقطع ما بينها وبين « مايك » لسفره فيعاودها ذلك السأم القديم والملل من حياة القصر الرتيبة ، وتحس بعودة التفاهة والفراغ الى حياتها ، ويصارحها زوجها بحاجته الى وريث يرثه من بعده ويحمل اسمه ويخبرها بانه لا يقيم اي وزن للفعل الجنسي لانه تافه عــارض ، فالسعادة عنده هي في هذا الحب المتبادل وفي هذا العطف وهذه الالفة التي تسري بينهما . ويعود مايك بعد قليل ويطلب منهـا ان تهجر زوجها وتلحق به ليتزوجا فتعقد العزم على ذلك ، غير انه عندما ضمها الى صدره وكان خفاً كالعهد به وارادت ان تتعلقه ولكنه لم يطق اصطباراً عليها لتنال حظها منه بل مال يضحك مستهزئاً ، عندها شعرت ان حبه قد تسرب من قلبها وزال كل ما كانت تشعر به نحوه من وجد وغرام .

عادت كونستانس من جديد تعــاني الوحدة المرة في قصر «وريغبي» الريفي بعد ان انقطع نهائياً ما بينها وبين مايك ، غير ان نظرتها الى هذه الحياة الرتيبة التي يرى فيها زوجها نموذجاً للحياة الكاملة ، قد تبدلت تماماً ، انها ليست غير فراغ لا معنى له واستمرار لمبيت تحت سقف واحد بين اثنين قد اعتادا الحياة معاً

بدأت تتحسس بوجود جسدها وتتأمله بعد ان اهملته وازدرته ، فشعرت بانها قد ظلمته وغمطته حقه ، كما انها لم تجد اي معنى لهذه التضحية التي اقدمت عليها ، فان أية امرأة اخرى تستطيع العناية بكليفورد والقيام بشؤونه مقابل اجر معلوم . فانتاب جسمهـا الهزال وعلا وجهها الشحوب وضاقت بها الحياة فكتبت الى اختها هيلدا تنبئها ما بنفسها وتخبرها باعتلال صحتها ، فهرعت هذه الى القصر واخذت تؤنب كليفورد على انانيته واثرته واكرهته على ان يستخدم لنفسه ممرضة تعنى بشؤونه بــدلا من كونستانس ثم اصطحبت اختها الى لندن لترفه عنها قليلاً .

قضت كونستانس ردحاً من الزمن في لنــدن ثم آبت الى « وريغبي » غير انها لم تعد في هذه المرة ملزمة بصاحبة كليفورد تحدثه وتقرأ له الاقاصيص وتعتني بشؤونه فقد كفتها ذلك المرأة التي استؤجرت لهذه الغاية ، واصبحت تستطيع ان تخلو لنفسهـا الساعات الطويلة دون ان يعكر صفو وحدتها معكر ، كمـا ان كليفورد نفسه قد وجد في مصاحبة هذه المرأة الجديدة لذة لم يجدها في عشرة كونستانس .

كان القصر كبيراً تحيط به غابة واسعة اخذت تقصدهـا كونستانس كل يوم فتهيم بين ادغالها وتستلقي في ظل اشجارهـا وتفكر في هذه الحياة التي تحياها . لقد ايقنت الآن يقيناً تاماً بانه لم يعد هناك اي مبرر لحياتها مع كليفورد ، ان ما احبته من اجله قد زال كما ان الانفصال الجسدي قد حل بينهما رغم انه لم يتحقق يوماً .

وكان يشرف على حماية الغابة التابعة للقصر حارس تجــاوز الثلاثين يدعى « اوليفر ميللورز » ، وهو رجل مستقيم البنيان قوي الجسد من ابناء عمال مناجم الفحم التابعة للقصر ، تلقى قسطاً من التعلم والثقافة ومارس بعض الحرف المعدنية ثم تزوج امرأة انجب منها ابنة صغيرة ثم هجرها وانخرط في الجيش وظل فيه خمس سنوات ارتقى فيها الى رتبة ضابط ثم عاد الى بلدته قرب قصر « وريغبي » وانزوى في كوخ في الغابة يحميها من لصوص الصيد .

لم يكن ميللورز من الذين تلقوا ثقافة فكرية خلقت حولهم هالة من الاوهام والمشاكل المزيفة ابعدتهم عن اعطاء الحياة الجسدية

قيمتها الحقيقية ، كما انه لم يكن من الجفاة الذين لم تصقلهم الحضارة ولم يهذبهم العلم، بل كان متزناً ناضجاً يسعى لتحقيق حياته بامرأة يتفتح لها جسداً وروحاً ، فتوله وهو في السابعة عشرة بحب فتاة متعلمة جمعتها معه رابطة الثقافة ، ولقد احبته حباً مبرحاً غير انها كانت زاهدة في العلاقة الجنسية تحب فيه روحه وحديثه فاقنعها بضرورة الحب الجسدي غير انها لم تكن ترغب فيه من اعماقها فاضطر الى الانفصال . ثم تعلق بامرأة ذات ماض كانت تحب كل شيء في الحب الا الحب ذاته ، فاخذت تستسلم له مكرهة فاضطر الى هجرها لانه يريد امرأة تريده وتريد معه حبه المفعم بالجسد ، والتقى بامرأة خيل اليه انها ضالته فتزوجها لانها وهبته طائعة ما كرهت اعطاءه الاخريات ، غير انها اختلفا حول بعض شؤون البيت فأخذت تأبى عليه وتمتنع وكانت الى جانب هذا لاتشاركه ازمة الرعشة مهما حاول ، فهي تبدأ حيث ينتهي وعلى هذا النحو كرهها وكره العيش معها رغم ان له منها طفلة ، فهجرها الى الجيش وكاد يفقد امله في حياة عضوية صحيحة .

في الغابة التقت كونستانس بميللورز عدة مرات ، وعندما حدثته لم تجد لديه ذل الخدم والاجراء او جهل العامة بل كان مهذباً مثقفاً او شخصية جذابة وجسد قوي فاخذت تقصد كوخه صباح مساء لتخلو الى نفسها الساعات الطوال بعيداً عن القصر ، اما هو فقد يسر لها هذه الخلوة بان تجنبها ، وفي احدى الامسيات اسلمت له قيادها فوجدت الراحة الكبرى التي لم تعرفها من قبل : لقد دخل كلاهما في حظيرة الانسانية الحق بعد ان ضلا عنهما في عزلة الموت . وعادت اليه في اليوم الثاني . انها لم تعد بحاجة الى مجهود تبذله من جانبها كما كانت تفعل مع « مايك » وطلب منها ان تعود ثالثة في اليوم التالي فلم تفعل فقد كانت تشعر بانه ينتظرها ، وانقضى يوم آخر لم تذهب فيه اليه ، لكنه ظفر بها عندما كانت تمر مساء بطرف الغابة فاقتادها بعنف اليه وفي هذه المرة شاركته لذته مشاركة لم تفعلها امرأة قط : لقد ظفر اخيراً بضالته وارتبط مصيرهما ، اما هي فعادت الى القصر وقد شعرت بان حياة جديدة قد دبت فيها ، ان تلك اللحظة التي مرت بها قد محت كيانها من عالم الوجود لذلك خشيت على نفسها من هذا الوجد العظيم فهي لا تريد ان تستعبد وان في نفسها القدرة الدائمة على امتلاك زمامها وتوجيهها حسب ارادتها ، اما ذلك الرجل فهو لا شيء ، انه ليس سوى الاداة الكريهة لادراك ذاتها ، وعندما صعدت الى غرفتها في القصر لم تودع زوجها بقبلة المساء المعهودة، ان حياتها قد دخلت في طور جديد .

اما هو « ميللورز » فلم يستطع الرقاد فغادر كوخه واقترب من القصر واخذ يتأمل نوافذ غرفتها ، انها ليست الغريزة ولكنه شيء آخر . انه ذلك الشعور القاسي بالعزلة الناقصة التي لا يتممها الا امرأة ساكنة اليه . ان خروج الانسان من عزلته لن يجديه فعليه ان يتشبث بها طيلة حياته ، وان ذلك الفراغ في كيان الانسان سيملأ بين الحين والآخر فعليه ان ينتظر تلك اللحظة ، ان ذلك الامتلاء سيتم من نفسه وليس عليه سوى الانتظار .

واحس ميللورز بان ما يربطه بها قد تحطم فجأة . لقد حطمه لانه يجب ان يتحطم ، فعلى كل منهما ان يخطو خطوة نحو الآخر ، واذا هي لم تأت اليه فلن يذهب اليها .

وذات يوم اخبرت كونستانس الممرضة التي تتولى العناية بكليفورد بانها قد تأمل بأن يكون لها ولد فسرعان ما انتشر الخبر في المقاطعة حتى بلغ مسامع كليفورد الذي يطمع في وريث ، ففاتح كونستانس بالامر فانبأته بصحة الخبر وانها تنوي الذهاب الى البندقية لبضعة اسابيع ثم قصدت الكوخ واخبرت ميللورز فظن انها سيخرته لتنجب منه فغضب وانصرفت ثم عادت اليه مساء لتثبت له انها تريده لذاته ، وعندما اتحد جسداهما لم تجد لذة في بادىء الامر بل تولاها الاشمئزاز فطلب منها ان لا تكره نفسها على شيء لا تريده ، غير ان الموجة الغامرة من الفرح لم تلبث ان حلت فزال كل جفاء بينهما . وفي احدى الليالي التى قضياها معاً حدثها عن حياته الغرامية وعن اخفاقه في الوصول الى امرأة ترضي جسده ، وبانه يؤمن بان طيبة القلب والبعد عن النفس المعقدة يجب ان يسودا العلاقات الغرامية ، فعلى الرجل والمرأة ان يقيما علاقتهما على اساس من الصراحة وحسن التقبل لها، وفي يوم آخر تمتعا بامسية رائعة عارية في الغابة تحت وابل من المطر . ان عليها ان يعرفا معرفة تامة دون وجل او خجل .

واخيراً قدمت هيلدا لتصحب كونستانس الى البندقية فغادرتا القصر واقامتا في فندق قريب ثم عادتا في المساء الى الكوخ لان كونستانس وعدت ميللورز بليلة معاً قبل سفرهما ففارقتها هيلدا وعادت في الصباح واصطحبت كونستانس التي وعدت ميللورز بان ينظما حياتها بعد عودتها . لم يكد ينقضي اسبوعان على اقامتها في ايطاليا حتى علمت من خلال الرسائل التي وردتها من كليفورد ومن الممرضة المشرفة على شؤونه ومن ميللورز ان امرهما اوشك ان يفتضح لان زوجة ميللورز رفضت الطلاق وعادت الى كوخ زوجها

فوجدت فيه زجاجة عطر كانت قد نسيتها كونستانس ، كما وجدت الحروف الاولى من اسمها منقوشة على اطار خشبي ، فاضطرت كونستانس على اثر هذا الى العودة الى لندن على جناح السرعة ، فاخبرت اباها بانها حامل وبانها لن تعود الى زوجها بعد الآن بل ستلحق بابي الطفل . والتقت بميللورز واخبرته بانها تود العيش معه لان ما وهبها اياه من الحب لن تظفر بمثله مع غيره ، وتردد قليلا لفقره ، غير ان المعرفة العضوية هي سر الوجود ولقد ظفر بها كاملة مع كونستانس لذلك لن يفترقا ، وعندما اتحد جسداهما بعد هذا الغياب علم ان واجبه الحقيقي هو في ان يحقق هذا الاتحاد . انه يمثل هذه المعرفة وهي زميلته فيها وسيناضلان ضد الحاجة ، ضد الآلة التي افسدت الحياة ، ضد المثل العليا الاجتماعية الفاسدة . فليحمد لنفسه ان وجد امرأة عذبة تفهمه .

واتفقا فيما بينهما على ان ينتظرا عدة شهور حتى يتم طلاقه من زوجته . ولم يكن والد كونستانس يعلم حتى الآن من هو عشيق ابنته ولم يكد يعلم به منها حتى ثار وشعر بانه اهين واتفق مع صديق لكونستانس يحبها ومن ابناء الطبقة العليا ان يدعي انه ابو الطفل وانه يبغي الزواج منها حفظاً للسمعة الاجتماعية فوافقت مع ميللورز على ذلك وذهبت الى كليفورد في قصد تطلب منه تطليقها فابى ، واخبرته بحقيقة عشيقها فاستمر على ابائه فغادرته مع هيلدا الى ايكوسيا واقامتا فيها . اما ميللورز فقد وفق الى عمل في مزرعة وكان همه ان ينتظر الشهور المعلومة التي سيظفر بعدها بالطلاق وان يجمع ما يمكنه من شراء مزرعة صغيرة يعيش فيها مع كونستانس التي كانت واثقة من ان كليفورد سيطلقها عن قريب . وكتب اليها ميللورز يقول : ان كوارث العالم باجمعها لم تفلح في اطفاء القلوب انها لن تفلح في ازالة ذلك الضوء المتصل بيننا ، سنكون معاً في العالم المقبل . ورغم ان في قلبي شيئاً من الخشية فاني مؤمن باتحادنا ، فعلى الانسان ان يناضل ويعمل بطيبة خاطر ثم يتكل على شيء اسمى منه . فالضمان الوحيد ضد ما يجيء به المستقبل هو ان نؤمن بخير ما فينا وبالقوة التي هي فوق قوتنا . اني اؤمن بالشعلة المتقدة بيننا فهي كل شيء . ليس لي من صديق حميم فهذه الشعلة هي كل ما لي في الحياة .

***

« رغم كل ما سيقال اعلن للملأ بان هذه القصة كتاب شريف نقي ضروري لرجال اليوم[3] » بهذه الجملة افتتح لورنس مقدمة قصته لانه كان يتوقع الاثر الذي ستحدثه فقد عانى من ضروب الاتهامات الشيء الكثير . كان همه ان يفهم الرجال والنساء قيمة الغريزة « فالفهم الكامل الواعي هو اليوم اشد ضرورة من الفعل ذاته[4] » « وعلينا ان نتصرف وفق تفكيرنا وان نفكر وفق افعالنا[5] » والمبدأ الذي وضعه لورنس نصب عينيه هو « ان الحياة ليست جديرة بان يقبلها المرء الا اذا عاش الجسد والروح في تفاهم تام وكان بينهما توازن طبيعي واحترم كل منهما الآخر[6] » . وقصة الليدي تشاترلي تمثل هذا السعي الحثيث من قبل كونستانس وميللورز نحو ما ينادي به لورنس . ان كونستانس في بداية القصة فتاة ككل الفتيات لم تعرف الحب الا من خلال النجوى والكلمات وغلب عندها التفكير النظري على شؤون الجسد وعندما استسلمت لم يكن ذلك عن قناعة وانما هو شر لا بد منه ، وعندما تزوجت لم يكن بدافع من نداء الجسد ، ولقد ظنت انها تستطيع الاستغناء عنه واحتقاره ولو بالفكر غير ان سنتين من الحرمان خلقتا فيها من القلق والاحساس بالموات ما جعلها تسعى واعية او غير واعية في الطريق اللاحبة فاتصلت بـ « مايك » غير ان الاتصال المجرد لا يكفي بل لا بد من الاتصال الحقيقي ، الاتصال الذي هو غاية يجب ان يسعى اليها الطرفان معاً ، ولم يكن الامر مع مايك على هذا النحو لان عطاءه غير اصيل لم يقنعها فتركته والتقت بميللورز الذي كان يبحث مثلها عن الحياة الصحيحة بعد ان انفق كثيراً ، فتمسكن كل منهما من الآخر .

وفي كل لقاء بينهما كان لورنس يصور لنا ناحية من نواحي الغريزة ويرسم الطريق اللاحبة التي يجب ان تسير فيها فالحياة بدونها عدم وموت وهي سبيل الحياة . والرجل والمرأة رغم حاجتهما الى بعضهما لا يفنى احدهما في الآخر فكل منهما في غنى عن زميله وهذه الهوة بينهما لا تزول لان احدهما ليس سوى وسيلة لاثارة الحياة في الثاني عن هذه الطريق ، واتصالهما لا يزيل العزلة بين الافراد وانما يتممها ويجعلها عزلة صحيحة . لقد كانت دعوة لورنس دعوة حارة الى العودة الى الحياة بعد ان اوشكت الآلة ان تقضي على الانسان واوشك العقل ان يميت الغرائز في حضارة القرن العشرين .

دمشق — **جلال فاروق الشريف**

---

(٣) L'amant de Lady Charterley. N.R.F. 496 édition P.13

(٤) L'amant de Lady Charterley. N.R.F. 496 édition P.15

(٥) » » » » » » » » P. 14

(٦) » » » » » » » » P. 17

آيسه ... الجاريه الاسيوية

كان البارون فيريول من كبار المغامرين، انتظم في الجيش واشترك في معارك كثيرة، ثم تخاصم مع أحد رؤسائه فهجر فرنسا وعاش وقتاً طويلاً في بولونيا والمجر حيث ارتبط بصداقات هامة أدت لبلاده خدمات جليلة، فكافأه لويس الرابع عشر على ذلك بجعله سفيراً له لدى السلطان العثماني، فرحل الى الاستانة في سنة ١٦٩٨ ليتبوأ هـذا المنصب الخطير.

وبينا كان البارون يتجول يوماً في سوق الرقيق بالاستانة، وقع نظره على فتاة في الرابعة او الخامسة من عمرها، تدعى هايدوزعم تاجر الرقيق انها بنت أمير من امراء القفقاس غزاه الاتراك وأشعلوا النار في قصره، فدخل هو وأنقذ الطفلة من بين الانقاض..

ويبدو أن اقامة البارون بين الباشاوات الاتراك قد بعثت في نفسه ميلاً الى شراء الجواري، او أن جاذبية الطفلة الاخاذة قد أثرت فيه تأثيراً عظيما، فاشتراها بخمسمائة ليرة، واصطحبها الى فرنسا اثناء اجازته، فعمدها في ليون، وتركها في كنف زوجة اخيه السيدة دو فيريول التي تعهدت بالعناية بها، وعاد الى مقر عمله.

وهكذا غدت الاميرة الآسيوية الصغيرة، وقد نقلت الى ضفاف السين، زهرة جميلة من زهور فرنسا.. وتضافرت مأساتها، وتربيتها، وجمالها، على ان تجعل منها امرأة بارزة في المجتمع الفرنسي اشتهرت باسم آيسه، وهو تحريف هايده اسمها الاول.

وقد عاملت اسرة فيريول هذه الفتاة كابنة لها، فتعرفت بالاسر النبيلة وغشت مجالسها.. ورآها الوصي على العرش في أحد هذه المجالس فأحبها، وأراد أن تكون له، فسرت السيدة دو فيريول بذلك، معتقدة بأن الفرصة قد سنحت لربيبتها لان تغتني وتسعد. ولكن آيسه تولاها الذعر مما يراد بها، واستنكرت من السيدة فيريول واختها السيدة دو تانسان واخيها الكردينال الذي يحمل الاسم نفسه، أن يعمدوا الى تشجيعها على الغواية، ولاذت من الضغط المجرم والنصيحة المخجلة بأصدقاء لها من اسرة بولينغروك يقيمون في قرية لاسورس على مقربة من اورليان، موقنة بأن فضيلتها ستحترم هنا وتصان اكثر منها في باريس.

ولكن السيدة دو تانسان التي لم يخامرها العطف قط على آيسه، بل كانت تبغضها وتحقد عليها، قد ازدادت لها بغضاً وكراهية، حين قاومت رغبتها فافلتت من قبضتها، فأخذت وهي العريقة في المكائد والدسائس، تكيد لها وتنصب حولها شباكها..

ولعل اعظم ما يستحق الاعجاب في آيسه الاخاذ، هو هذه الفضيلة النبيلة التي جابهت بهـا، ببساطة وعفوية، ذلك المجتمع المنغمس في الرذيلة والغارق في الفساد.

في العالم المتفسخ الذي كانت اللذة العابرة تسوده وتوجه افراده كانت آيسه ذات قلب لا يستجيب الا لعاطفة قوية، وحيدة وعاتية، وسرعان ما استجابت حقاً لمثل هذه العاطفة العظيمة، فأثبتت ان الحب الصحيح ينشأ في كل زمان وفي اي وسط كان.

ولكن لا بد قبل ان نعرض لتلك العاطفه المؤثرة التي احتلت قلب آيسه، من ان نجلو صفحة مهمة في حياتهـا احيطت بالشك والغموض.

فقد تركنا البارون دوفيريول يعود الى القسطنطينية للقيـام بمهام السفارة الفرنسية، وقد استمر قيـامه بهذه المهمة حتى سنة ١٧٠٩، فلما عاد الى فرنسا وجد الطفلة الصغيرة التي اشتراها من سوق الرقيق، قد نمت وتفتحت كالزهرة العطرة.. وما من شك في انه قد أخذ بجمال الفتـاة التي كانت تذكره بوعود الاسواق الاسيوية، فقد كانت هذه الاسواق تبيع الجارية لتكون امـة

لسيدها وملكاً له يتصرف به مثلما يشاء .

وقد راجت اشاعة تزعم ان البارون المغامر ، طالب الفتاة باله عليها من حق السيادة . . وهو حق اشتراه بالمال الذي دفعه ثمناً لها في سوق الرقيق . واختلف الباحثون المدققون في هذه القضية، وطال بحثهم لمعرفة موقف البارون من ربيبته ، وهل اعتقها من عبوديتها ليفرض عليها عبودية جديدة ليست اقل كراهية ولا اضأل اذلالا .

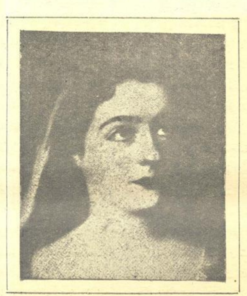
ويؤكد سانت بوف الذي كتب اجمل دراسة وضعت عن آيسه وأكملها ، ان فيريول لم يكن غير أب للفتاة بينا يشك اوجين آس في ذلك . وفي الكتاب الروائي الممتع الذي وضعته السيدة كاود فيرفال ، تذهب المؤلفة الى ان البارون قد ارغم الفتاة على ان تكون له .

وقد درست رسائل البارون كلها ورسائل الفتاة ، ومعارفهما جميعاً ، فكانت الوثيقة الوحيدة التي اشارت الى هذا الموضوع رسالة البارون الى آيسه يقول فيها :

« عندما انتزعتك من ايدي الكفار ، واشتريتك ، لم يكن في نيتي ان أجلب لنفسي الحزن والتعاسة ، بل كنت اريد ؛ على العكس ، ان افيد من قرار القدر في مصير البشر ، فأتصرف فيك مثلما أشاء ، واجعل منك يوماً ابنة لي او خليلة . . وان هذا القدر نفسه ليريد ان تكوني الاثنتين معاً ، اذ لست استطيع ان افصل الحب عن الصداقة ، والرغبة الحارة عن حنان الابوة، فكوني مطمئنة واذعني لمشيئة القدر ، ولا تفرقي بين ما يبدو ان السماء نفسها ارادت ان تجمعه . ».

ولكن هل هذه السطور فاصلة في هذا الموضوع ؟ ان قول البارون : « وان هذا القدر نفسه ليريد ان تكوني الاثنتين معاً » ليس حتماً تقريراً لامر واقع ، بل يمكن ان يكون اعراباً عن امنية ، وهكذا رآه سانت بوف . على ان استشهاد سانت بوف في نفي هذه الشبهة ، بما اتصفت به آيسه عن فضيلة ، لا يؤلف حجة ، اذ من الواضح ان البارون اذا كان قد اصر على ان تكون له ، باعتباره سيداً لها ، او « آغتها » كما كانت تسميه ، فانها لم تكن لتملك وسيلة تقصيه عنها . . وكذلك شأن الحجة التي تخيلتها كاود فيرفال اذ زعمت ان آيسه لم توافق فيما بعد على الزواج من الشفاليه دايدي الذي احبته أعمق الحب ، لان ذكرى خطيئتها كانت تحملها على الاعتقاد بأنها غير اهل له . .

الآنسة آيسه



اما اميل هنريو فانه يميل الى الاعتقاد بأن البارون الكهل قد تخلى عن عاطفته ، ويستدل على ذلك بأن الفتاة التي قامت برعايته والعناية به حتى وفاته ، وترك لها جانباً من ثروته ، لم تكن تحمل له في قلبها غير المودة والعرفان بالجميل . وهنريو شديد الحرص على هذه الواحة من البراءة والطهارة في عهد الوصاية الحافل بالفساد ، وان كان يفترضها افتراضاً ..

وبينا كان فيريول يحتضر في الخامسة والسبعين من عمره، تعرفت آيسه بشاب جميل على جانب كبير من الثقافة والنباهة ، اثنى عليه فولتير ثناء عظيما ، ووصفته السيدة دودوفان في رسائلهـــا باطراء واعجاب ، واحبه مونتسكيو وعاشره وقتاً طويلاً .

كان هذا الشاب يدعي الشفاليه دايدي وقـــد أحب آيسه اصدق الحب ، فقاومته الفتاة وقتاً قصيراً ثم استسلمت له . وليست هنالك اية وثيقة مباشرة عن هذا الحب العميق الذي استمر عشر سنوات ، اذ ان الرسائل التي تبادلاها قد احرقت ، ولم ينشر منها غير رسالتين من آيسه الى عشيقها اثبتتها السيدة كلود فيرفـــال في كتابها دون ان تشير الى مصدرهما ، ورسالتين من دايدي اليها نشرهما رافنيل وهما تفيضان رقة وحناناً . وكل مـــا عرف عن علاقتهما ، قد بني على الرسائل الوحيدة التي تركتها آيسه وخلقت شهرتها الادبية ، وقد كتبتها بين سنتي ١٧٢٦و١٧٣٣ الى صديقتها السيدة كالاندريني بجنيف .

وقد اثمر هذا الحب ابنة ولدت في الخفاء ، وسميت سيليـــني وربيت في احد الاديرة ، وكانت امها تزورها بين حين وآخر دون ان تعرف الصلة التي تربطها بها . ثم تبناها الشفاليه واعترف بها ، وتزوجت فيا بعد الكونت دوناتيا ولا يزال احفادها على قيد الحياة .

وكثيراً ما كانت آيسه تتحدث عن ابنتها في رسائلها الى السيدة كالاندريني ، بحنان وحساسية مؤثرين . والحق ان عاطفة آيسه الرقيقة ونفسها الشاعرة هما اللتان جعلتا لرسائلها تلك القيمة الادبية ، تضاف الى ذلك لباقة ناعمة تذكر بالقرن السابع عشر الذي كان الادباء لا يقولون فيه كل شيء ، ولكنهم يلمحون الى كل شيء .

لهذه الرسائل قيمة مزدوجة ، لانها كانت خاصة وعـــامة في وقت واحد ، فهي تصور القرن السابع عشر والبيئة التي عاشت فيها بما في ذلك البلاط ، ومجلس الوزراء ، وغرف الباليه رويال الماجنة ، ومخادع الاسر النبيلة ، وكواليس المسارح . وصاحبتها تعرف اية نكتة شاعت هذا اليوم ، وأية دسيسة قامت بها السيدة دوتانسان ، وآخر عشاق السيدة دو بارابير ، وخليلة الوصي الجديدة ، ولا يفوتها انتقاد هذه الاخلاق المتفسخة ، والتعليق على ذلك كله بقولها : « ان كل ما يجري في ظل هذا النظام الملكي يؤذن بانهياره » .

ولم تكن آيسه لتسجل شيئاً في رسائلها دون ان تتحقق منه ، وكانت تشير احياناً الى ما تطالعه من كتب ، ككتاب «غوليفر» الذي اضحكها وكتاب « مانون ليسكو » الذي ابكاها كثيراً .

وقد كان بديهياً ان تبكيها مأساة ديغريو ، لان الحب لم يكن في نظرها ، هي ايضاً ، تسلية عابرة . وكانت تتألم في اعماقها ، لان علاقتها بالشفاليه دايدي لم تكن علاقة شرعية ، بالرغم من شغفها به وعبادتها له . وكان التبكيت ينمو في ضميرها ، في غمرة المتعة التي كانت تستشعرها بقربه .

ولهذا كانت اعترافاتها لصديقتها السيدة كالاندريني تحمل طابعاً كئيباً مؤثراً ، هو صدى ذلـــك الصراع العنيف الذي كان يحتدم بين ضميرها وعاطفتها ، فتحاول الابتعاد عن عشيقها ولا تستطيع .

وقد علمنا انها رفضت الزواج بالشفاليه دايدي ، حين رغب اليها في ذلك ، وهو موقف غريب لان الزواج كان يضع حداً لذلك الصراع الذي كانت تعانيه في اعماق ضميرها ..

صحيح ان دايدي كان يدعى الشفاليه دومالطة اي انه نذر العزوبية ، ولكن كان في وسعه نقض نذره . فهل تصح نظرية السيدة فيرفال التي زعمت ان ذكرى علاقتها بالبارون فيريول هي التي حملتها على رفض هذا الزواج ؟

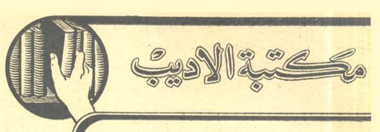
في الواقع ان في رسائل آيسه جملة تشير الى السبب الذي جعلها تضحي بهذه السعادة التي تتمناها من اعماق قلبها ، فقد قالت . « ان طبيعة املاكه هي عقبة لا يمكن تخطيها » .

فالراجح ان املاك الشفاليه كانت مؤلفة من هبات اكليركية ، وكان عليه اذا نقض نذره وتزوج ان يتخلى عنها ، وهو امر لا يتفق ومصلحة ابنته ايضاً ، فلم تشأ ان تؤدي سعادتها الى حرمان الشخصين اللذين تحبهما من ثروتها . . وليست هي المرة الاولى التي تحـــول الشؤون المالية دون سعادة عاشقين . .

واستطاعت آيسه اخيراً ان تقنع عشيقها بقطـــع تلك العلاقة المحرمة ، فنزل عند رغبتها الملحة ، وهجرها دون ان يتضاءل حبه لها . .

ولا ريب في ان النصائح التي كانت ترسلها اليها السيدة كالاندريني من جنيف قد عملت عملها في التفريق بين هذين القلبين العميدين . .

ومرضت آيسه ، واشرفت على الموت . فبادرت الى احراق رسائل عشيقها وطلبت منه الاقتداء بها ، لكي تزيل كل اثر من آثار ذلك الحب الذي بقي خالداً على الرغم من ذلك .



المذكرات

للاستاذ محمد كرد علي ٣ اجزاء – ٩٦٦ ص – مطبعة الترقي – دمشق

الاستاذ محمد كرد علي ، رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعالم الشام ومؤرخها ، وباعث النهضة العلمية فيها ، اشهر من ان يعرف . وهو حلقة نادرة في سلسلة العلماء الذين انجبتهم دمشق في تاريخها . ولقد ولد في عصر ملؤه الاضطراب والجهل والفوضى وعاش في عصر كله اضطراب ، وجهاد . مرت به الحياة في حالاتها ، فرأى نعيمها وعذابها ، وذاق حلوها ومرها ، وغناها وفقرها ، ورخاءها وبؤسها . اقام في وطنه ، ورحل عنه . وفر من الظلم فتبعه الظالم ، وجاهر بالحق ، فلقي في سبيل الحق أذى ونصباً . وسمت به الرتب حتى بلغ الوزارة ، وسما به العلم حتى كان رئيس اكبر هيئة علمية بالشام ، وبلغ منزلة حسده الناس عليها . ورأى الملوك وجالسهم ، وحضرت مجالسه العلماء ، والوزراء ، والرؤساء ، والادباء . ورأى ساسة الترك والفرنسيين والانجليز . وشاهد اصنافاً من الناس واخلاطاً من البشر . من العلماء الى الجاهلين ، ومن الملحدين الى رجال الدين ومن الوزراء الى العامة . وساح في البلاد وطاف . وصاحب المستشرقين ، فعرفهم وعرف شأن ما كتبوه والفوة وكانت حياته طافحة بالعجائب والغرائب والحوادث . فالحقبة التي مرت به حقبة لم تعرف الاستقرار . والحياة التي ساقته اليها الظروف حياة لم تعرف الاستقرار ايضاً . كانت حياة منوّعة زاخرة . في كل يوم منها شيء جديد . حياة فيها امور لا تمر بحيوات الناس ، ولا يعرفها الا نمط خاص من الناس . هذه الحياة الملأى بالنشاط والسعي وراء الحق ، ونشر العلم ، والتشجيع ، والعمل والانتاج ، اراد الاستاذ كرد علي ان يصورها ، في مذكراته ، وان يعرض على الناس بعض صفحاتها لتكون اصلاحاً لهم وعبرة .

وفي الحق انك تجد في هذه المذكرات اموراً لا تستطيع ان تجدها في مكان آخر ، ولا ان تسمعها من رجل آخر فخفايا سياسة الاتراك في الشام ، وخفايا سياسة الفرنسيين في أيام الانتداب ، وخفايا سياسة المصريين ومؤامرات الترك والفرنسيين والانجليز على البلاد ، كل ذلك تجدها واضحة جلية في المذكرات .

وانتشار الجهل في البلاد ، والحملة القوية التي قام بها الشيخ طاهر الجزائري وساعده فيها نخبة من مثقفي البلاد تجدها مصورة في المذكرات احسن تصوير .

ومجالس العلماء ، ورأي الاستاذ فيهم تجدها مفصلة مبينة . يضاف الى ذلك انرأي الاستاذ في كثير من المعاصرين من الادباء والعلماء . والوزراء ، رأي جري ، جداً . لا يصدر بمثل هذه الجرأة عن احد .

امتازت هذه المذكرات بالصراحة . وهي صراحة قد تجرح . ولكنها تظهر العيوب واضحة . ولقد هدف الاستاذ كرد علي من نشر مقالاته الى الاصلاح ، هذا الاصلاح الذي سعى من اجله كثيراً . ولا بد لكي تصلح من صراحة وجرأة وشجاعة ولو لقي صاحبها منها الاذى او أغضب الناس .

وامتازت المذكرات بأسلوب سهل ممتنع . اسلوب كأنه الماء الصافي ينساب حلواً عذباً . مع بلاغة فيه وقوة . وقد عرف الاستاذ بأسلوبه الحلو هذا في جميع ما كتب .

وميزة ثالثة لهذه المذكرات حتى انها اصبحت مرجعاً لدراسة العصر الذي عاش فيه كرد علي . ولا شك ان اثرها سيكون عظيماً .

واحسن واوجز ما يقال عن المذكرات انها جديرة بأن تقرأ جديرة بأن يعنى بها ويرجع اليها .

دمشق — صلاح الدين المنجد

ولاة دمشق في العهد العثماني

للاستاذ صلاح الدين المنجد – ١٣٦ ص – دمشق

تحت هذا العنوان نشر الاستاذ صلاح الدين المنجد كتابين مخطوطين قديمين هما كتاب الباشات والقضاة لابن جمعة ، وكتاب الوزراء الذين حكموا دمشق لابن القاري الاول عن نسخة مكتبة برلين ، والثاني عن نسخة دار الكتب الظاهرية بدمشق .

يقول الاستاذ المنجد ان تاريخ دمشق ما يزال غامضاً في بعض عصوره ، مجهولا في دقائقه ، ذلك لان ما كتب عنها كان اقرب الى الاجمال . لان العناصر التي يجب الاعتماد عليها في بحث تاريخي علمي ما تزال مبعثرة . فكثير من الكتابات القديمة التي تجدها على

المباني التاريخية ما يزال على المباني لم ينشر ولم يدرس وما نشره الغربيون منها حشي بأخطاء أدت الى نتائج غير صحيحة . والوثائق الرسمية ، كالسجلات وكتب الوقف ما تزال بعيدة عن اعين الناس لم يروها . فضلاً عن ان الكثرة من المثقفين لا يعلمون شأنها وقيمتها . والتآليف المخطوطة المتعلقة بدمشق ما تزال تحت الغبار . يأنف الكثرة من لمسها والنظر اليها فلا يمكن اذن كتابة تاريخ تام مفصل لدمشق قبل نشر النصوص ، ودراسة الوثائق وحل الكتابات .

واذا كان ما وجد من هذه العناصر متفاوتاً في الندرة والكثرة بالنسبة للعصور التي مرت على دمشق قبل العثمانيين فانها لتكاد تكون مفقودة بالنسبة لدمشق في العهد العثماني .

ويبين الاستاذ المنجد ان ايجاد هذه النصوص التي تساعد على البحث كانت غايته عندما نشر سلسلة النصوص الاثارية المتعلقة بدمشق ، ونشر بعض كتب الوقف وانها كانت غايته ايضاً عندما نشر كتاب ابن جمعة وكتاب ابن القاري .

***

يؤلف هذان الكتابان المخطوطان سلسلة تامة لولاة دمشق منذ دخول السلطان سليم اليها سنة ٩٢٢ هـ الى سنة ١٢٣١ هـ . وقد اردف الناشر بالكتابين ملحقين اخذهما من سالنامه ولايت سورية . للولاة من سنة ١٢٣١ هـ الى سنة ١٣٣٦ أي الى دخول الجيش الانكليزي دمشق مع الامير فيصل

فيكون الكتاب اوسع واجمع مصدر عن ولاة دمشق . واذا قيل عن ولاة دمشق فمعنى ذلك تاريخ دمشق السياسي والاجتماعي والعمراني . لان مؤلفا الكتابين ، يذكران اسم الوالي والاعمال التي قام بها او التي تمت في عهده .

وقد مهد الاستاذ المنجد للكتابين بمقدمة جيدة عن سيرة الولاة وأثرهم العمراني وحالة دمشق في ايامهم . ثم اعقب ذلك بفصل سماه « مصادر عن تاريخ دمشق في العهد العثماني » وهو فصل يدل على سعة اطلاع وكثرة بحث . سرد فيه اسماء عدد كبير من المصادر المطبوعة والمخطوطة التي تتعلق بدمشق في العهد العثماني ، من كتب التواريخ والرحلات والمذكرات والتراجم وما يتعلق بآثارها ومضاتها وصناعاتها واوقافها وشعرائها ومكتباتها ومنتزهاتها وانهارها واليهود فيها . وهو عمل يستحق كل اعجاب .

وفي كتاب ابن القاري صور كثيرة لما نجده في ايامنا من اضطراب في السياسة . وعدم اخلاص في الولاة . واعتماد أولي الامر على الزعران في الحارات ، وتقريبهم الاعوان وابعادهم المخلصين . وتلاعبهم في سبيل استثمار أكثر ما يمكن استثماره .

والخلاصة ان كتاب ولاة دمشق من اطرف الكتب من حيث مادته ، ومن اجودها من حيث تحقيقه وتصحيحه والمصادر التي فيه . وهو جدير بعناية الباحثين بتاريخ دمشق خاصة ، والمتتبعين لاحوال البلاد العربية بصورة عامة .

كتاب وقف القاضي ابن المنجا

نشره وحققه الاستاذ صلاح الدين المنجد — ٤٨ص — المعهد الفرنسي — دمشق

هذا كتاب وقف قديم ، فيه ذكر ما وقف القاضي عثمان بن المنجا الحنبلي على اولاده وتربته في القرن السابع الهجري من الدور والاملاك والبساتين والجنائن وغيرها في مدينة دمشق وارباضها .

ذكر الناشر ان بيت المنجا كان بيت علم ودين ومال وجاه بدمشق . وان افراده كانوا من شيوخ الحنابلة بدمشق طوال ايام الايوبيين والمماليك . انتهت الى بعضهم رئاسة المذهب الحنبلي وكان منهم القضاة والفقهاء والمدرسون والمعدلون . واسسوا مدارس مختلفات اوقفت على المتفقهة من اصحاب الامام احمد بن حنبل . وكان لهم في اعمال البر والخير باع كبير .

وكان القاضي عثمان ، صاحب كتاب الوقف قاضياً كبيراً . جمع الى علمه مالاً وثروة واولاداً . فوقف لهم قبل وفاته ما كان لديه .

ويبين الاستاذ المنجد ان هذا النص هو اول نص من نوعه ينشر لان النصوص المتعلقة بالحنابلة بدمشق وحياتهم الاجتماعية نادرة لم يعن بها احد . وان هذا النص غني بالاماكن الموقوفة . مما يجعله غنياً بالفوائد الطبوغرافية واسماء القرى والمحال التي تكشف صفحات جديدة من تاريخ دمشق . هذا فضلاً عن امور ومؤسسات اجتماعية كثيرة يظهرها لنا النص .

ولا شك ان هذا النص رائعة جديدة يقدمها الاستاذ المنجد من حيث النشر والتحقيق فلقد عني بتصحيح النص والتعليق عليه بما عرف عنه من دقة في التحقيق وسعة في الاطلاع وعني بتبويبه وترتيبه بما شهر عنه من ذوق وفهم . وعني اخيراً ، باظهار ما في النص من فوائد بواسطة الفهارس العشرة التي اردف النص بها ، والمقدمة التي ابان فيها خصائص الكتاب وما يمكن ان يستخرج منه وقد عني ايضاً بصاحب كتاب الوقف فكشف نسبه . وذكر اجداده واولاده واحفاده ، بشجرة نسب :

واننا اذ نهنيء صديقنا الاستاذ المنجد على اعماله العلمية الجيدة الموفقة نشكر المعهد الفرنسي بدمشق على عنايته بنشر هذه النصوص من تراثنا العربي .

بيان الكلية الجعفرية

وردنا من الكلية الجعفرية في صور بيان نستطيع ان نسميه كتاباً اذتوخت ادارة الكلية في اخراجه شيئاً من التجديد فبسطت فيه لمعاً من القول في نشأة الكلية وفكرتها ونشاطها وسجلت فيه بعض اقوال المفكرين والعلماء بالمدرسة كما سجلت نتائج سنيها الاحدى عشرة ورسمت صوراً لحركاتها العلمية والعمرانية والاقتصادية .

ولا يسعنا بهذه المناسبة الا ان نكبر يد مؤسسها سماحة الامام السيد عبد الحسين شرف الدين مجتهد الشيعة الاكبر ونحترم بره بالجيل الطالع . وعقيدتنا ان اعطاء المعرفة والتهذيب اسمى الوان البر ، وابقاه في باب النفع ، وميزان الخلود .

وفي الحق ان الكلية الجعفرية قطعت بسنيها القلائل اشواطاً بعيدة نحو الكمال فكلفت مؤسسها الجليل وهيئة ادارتها الفضلاء تضحيات دلتنا على جلد وثبات نادرين حقاً .

فنرجو لمؤسسها طول البقاء ولها التقدم المستمر والنفع الاكثر .

كتب جديدة صدرت في القاهرة

من المطبوعات التي ظهرت حديثاً في مصر ما يلي :

« هاتف من الاندلس » لعلي الجارم بك و« المع ساعات الخرج في تاريخ الانسانية » لمحمد مفيد الشوباشي ،و« الحيتان » لاسماعيل مظهر و« في بلاد النجاشي» للدكتور مراد كامل و« فن الاخراج السينمائي» لبهاء الدين شرف ،و« ابن المعتز وتراثه في الادب والنقد والبيان » لمحمد عبد المنعم خفاجي والجزء الثاني من « قصص توفيق الحكيم » و« مع المغامرين والمجرمين » لعبد المنصف محمود باشا ، و« نشأة الدين » لعلي سامي النشار ،و« المسؤولية الجنائية» للدكتور مصطفى القللي بك و« كيف تبنى العائلة » للاستاذ بواس مسعد و« اكسير الحياة » للدكتور محمود محمد سلامه ،و« عبدالله بن قيس الرقيات » لعلي النجدي ناصف،و« فن الخطابة » لمحمد الحوفي و« من وحي البعثات السعودية » لصالح جمال الحريري ،و « أعلام الشعر الجاهلي » لمحمد عبد المنعم خفاجي وعبد السلام ابو النجا سرحان ، و« صور وخواطر في الاخلاق والاجتماع » لاميل شوقي، و« مذكرات زعيم المسرح الفكاهي » لنجيب الريحاني ،و« نجيب الريحاني » لعثمان العنتبلي ، و «محمد » لاحمد التاجي ، و « صور من البطولة » للدكتور حسين مؤنس ، و « اللعب والعمل » لعلي عبد الواحد وافي، و « رسالة العلم الاجتماعية » لبرنالي ترجمة الدكتور ابراهيم حامي عبد الرحمن ، و « في الادب والنقد » للدكتور محمد مندور و« أبو حنيفة »و « مالك ». و« ابن حنبل » لمحمد ابو زهرة ، و« نهاية الاندلس » لمحمد عبدالله عنان ، و« في الضباب » لابراهيم عبد اللطيف نعيم،و« الكلام في شعر البحتري » لمحمد طاهر الجبلاوي ،و« الغاز الحياة والموت » لعلي عبد الجليل راضي و« الرحلة المقدسة » لالياس الغضبان و« محمد فريد »لاحمد شوقي ،و« مآسي الشباب »و« زواج الشباب » ،و« كفاح الشباب» و« بنات » لاحمد الصاوى محمد .

***

ومن المطبوعات الحديثة التي ظهرت في القاهرة ايضاً ما يلي :

«البرقيات للرسالة والمقالة » لاحمد تيمور باشا، صدر باشراف خليل ثابت بك،و«طريق المجد للشباب»لسلامه موسى» و« المرأة في عصر الدمقراطية » لاسماعيل مظهر ، و« خليل مطران الرجل والشاعر » لمصطفى عبد اللطيف السحرتي،و« نشيد الانشاد » لعدنان الذهبي، و« هملت » لشكسبير ترجمة خليل مطران بك ، و« تاريخ الادب السرياني » للدكتور مراد كامل والدكتور محمد حمدي البكري، و« بعد الغروب » لمحمد عبد الحليم عبدالله ، و« مأساة أوديب » لعلي احمد باكثير ، و« حكم الطاعة » لابراهيم عبد القادر المازني، و « مع الابطال » لمحمد فهمي ، و« صور من الريف» لمحمد زكي عبد القادر ،و« السجل الثقافي لعام ١٩٤٨»لوزارة المعارف، و«قصة النزاع بين العزوبة والزواج » لعبد القدوس قرياقص ، و« ابراهام لنكولن » لجون درنكووتر ،و« الوصية » لجيمس هاتيو باري ، و« الحادث الخطير » لارنولد بنيت وقد ترجم هذه المسرحيات الثلاث سعيد جودة السحار و« تاريخ الطباعة والصحافة في مصر » للدكتور ابرهيم عبده و« الاعلام وشارات الملك في وادي النيل » للقائمقام عبد الرحمن زكي ، و« مأساة الزعيم كوريوليس» لشكسبير ترجمة محمد حمدان ، و« موعد في الجنة » لحلمي سلام، و«الاحزاب السياسية في فجر الاسلام » لبدوي عبد اللطيف، و« اصطلاحات فنية»للدكتور بشر فارس ،و« تغذية الاصحاء والمرضى» للدكتور سيد احمد نير ، و« غداً » لماري ادجورث ترجمة عمر خلوصي ، و« التحليل الكيميائي » لمصطفى كامل الجنيدي .

جولة الأديب في شهر

مندوبنا حضرة صاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك وزير مصر المفوض بالمملكة العربية السعودية فتحدث اليه سعادته عن بعض شئون القطر العربي الشقيق بما ننشر خلاصته فيما يلي .

قال مندوبنا .

— ما هي درجة التطور العمراني في المملكة السعودية الآن؟

فأجاب سعادة الوزير المفوض :

— يرى المتجول في المملكة السعودية مظاهر عمران كثيرة من ابنية جديدة ، وطرق ، وشركات ووسائل المواصلات المختلفة ، من تليفونات وبرق . . وينتظر ان يزداد التعمير نشاطاً بهذا التطور الإقتصادي العظيم ، الذى نشأ من كشف منابع النفط في المملكة السعودية . .

تطور العمران في المملكة العربية السعودية

الدكتور عبد الوهاب عزام بك

وزير مصر المفوض

وترجو ان تعنى هذه المملكة بوضع خطط للتعمير تضمن القيام بالامور العمرانية في سنوات قليلة ، ولا سيما فيما يتصل بالحرمين الشريفين . فمع اهتمام الحكومة السعودية بعمران الحرمين وانشاء الطرق المؤدية اليهما يحتاج تحقيق ما يرجو المسلمون للحرمين الى خطة جامعة تضعها المملكة السعودية وتتعاون على تنفيذها البلاد الاسلامية بما في طوقها من اموال وخبراء .

فتوسيع الحرم المكي مثلًا وازالة ما حوله من مساكن وانشاء طرق واسعة محيطة بالحرم يحتاج الى ملايين من الجنيهات . وكذلك توسيع ما حول الحرم المدني من الطرق ، وتعبيد الطريق بين جدة والمدينة . .

والحكومة السعودية مهتمة بهذا كله ، ولكن ليس من الانصاف ان يلقى العبء كله عليها ؛ وتقف الحكومات الاسلامية الاخرى دون مشاركة فيه بأموالها وخبرائها .

سكة حديد المدينة

— ما هو الموقف الآن فيما يختص بسكة حديد المدينة ؟

— هذا الطريق الحديدي مستعمل في سوريا وشرق الاردن ولكن الجزء الموجود في المملكة السعودية معطل منذ الحرب العالمية الاولى . وسمعنا ان المفاوضات انتهت اخيراً الى اتفاق سوريا وشرق الاردن والمملكة السعودية على استعمال هذا الخط حتى المدينة ، فتتصل ام القرى بالعالم الاسلامي كله بسكة حديدية .

وقدرت اللجنة نفقات اصلاح الخط باثني عشر مليون ليرة سورية ، اي حوالي مليون جنيه مصري ونصف .

ومعظم القضبان ، والمحطات والكباري على هذا الخط سليمة يمكن استعمالها مع قليل من الترميم . وقد سمعت ان الامريكان عرضوا على جلالة الملك عبد العزيز ان يشتروا أدوات هذا الخط بمبلغ ٢٠٠ ألف جنيه لاستعمالها في اماكن اخرى فأجابهم جلالته بان هذا الخط وقف اسلامي لا يجوز التصرف فيه .

هذا عن مواصلات الحجاز الحديدية وتنشأ الآن سكة حديدية من الظهران الى الرياض وتمر بالخرج وهي المزارع الملكية الواسعة التي تبعد عن الرياض ٨٠ كيلو متراً الى الجنوب الشرقي . وانشىء من هذا الخط نحو ١٠٠ كيلو . والمسافة كلها نحو ٤٠٠ كيلو .

دخل الحكومة السعودية

س — هل يمكن ان نأخذ فكرة عن ميزانية المملكة السعودية في الوقت الحاضر .

ج — للمملكة السعودية من ضريبة النفط ورسوم الحج والجمارك ومن العشور ما يمكنها من تحقيق كل اصلاح عمراني تحتاج اليه البلاد ، ويمكن تقدير دخل الحكومة من هذه الموارد بما لا يقل عن ٢٥ مليون جنيه .

الزراعة في الجزيرة

س — هل هناك برنامج للتوسيع الزراعي في الجزيرة العربية ؟

ج — الجزيرة العربية كما هو معروف ليس فيها نهر ، وامطارها قليلة ، ولكنها ليست كما يظن خالية من الزرع ، او غير صالحة

للتوسيع في الزراعة، فهناك اودية كثيرة تجري فيها السيول . . . وبعض هذه الاودية تسيل فيها عيون دائمة على سطح الارض . . وعلى مقربة من هذه الاودية آبار يستقى منها، وتروي الزرع والشجر، وفي الجزيرة واحات غزيرة الماء . .

ومن الاودية مثلاً وادي فاطمة على مقربة من مكة، ووادي ينبع . . وفي كل منها نحو ٣٠ عيناً جارية تسقي البساتين . ذلك غير العيون التي طمستها الرمال .

ومن المشاريع الهامة التي تفكر فيها الحكومة السعودية بناء سدود في الاودية الكبيرة، وقد شرعت في بناء سد في الطائف، وضع رسمه ويقوم على بنائه مهندسون مصريون .

فاذا تيسر للحكومة بناء هذه السدود تغيرت الحال في الجزيرة العربية كثيراً .

وكذلك تهتم الحكومة السعودية باستنباط المياه الجوفية . وقد بحثت في مواضع كثيرة لاستخراج هذه المياه ولا تزال تبحث .

التعاون الثقافي بين مصر والمملكة السعودية

— ما هي حالة التعليم في المملكة .

— يهتم جلالة الملك عبد العزيز بنشر التعليم في ارجاء المملكة وفيها الآن مدارس دينية كثيرة، ومدارس اخرى ابتدائية وثانوية منها مدرسة تحضير البعثات في مكة وهي تؤهل الطلبة للالتحاق بالمدارس المصرية العالية .

والاستعانة بالمدرسين المصريين في ازدياد عاماً بعد عام وكان المدرسون في العام الماضي نحو ستين في المدارس الابتدائية والثانوية وعشرين من علماء الازهر (من شتى المذاهب) يدرسون في مكة والمدينة والرياض وجدة والطائف . وفي القرى في اواسط نجد وفي الظهران، ويرجى ان يزداد عدد المدرسين المصريين على توالي الاعوام .

ثم ان عدد الطلاب السعوديين الذين يوفدون الى مصر للتعليم في ازدياد كذلك، وعددهم الآن نحو ٣٠٠ في مدارس مختلفة وفي الجامعات .

والاستعانة بعلماء الازهر للتدريس هناك دليل واضح على بطلان ما يقال من تعصب الوهابيين لمذهبهم، ونفورهم من علماء المسلمين الآخرين . وليس المذهب الوهابي بدعة في الاصول او الفروع فهو مذهب السلف في الاصول، ومذهب ابن حنبل في الفروع .

مطار الظهران

— ذكرت الصحف الامريكية ان الامريكان انشأوا اكبر قاعدة جوية في الشرق الاوسط في منطقة الظهران بقصد استعمالها عند اللزوم لحماية منابع البترول . فما هي تفاصيل هذه المسألة ؟

— الذي اعلمه انه كان للامريكان مطار في الظهران ولكن الحكومة السعودية لم ترض بان يبقى في ايدي الامريكان فاستردته، وسلم المطار للحكومة السعودية، في احتفال شهده سمو الامير منصور وزير الدفاع، وكتب محضر بهذا التسليم .

ونشاط الامريكان في المملكة السعودية نشاط اقتصادي، لا ترضى الحكومة السعودية بان يؤثر على استقلالها اي تأثير .

بين المملكة السعودية والدول العربية

— ما هي صلة المملكة السعودية بالبلاد العربية ؟

ج — اما الصلات بين المملكة السعودية وبين مصر فغنية عن البيان ونسأل الله ان يديمها ويزيدها متانة . .

ولا يحتاج الى بيان ايضاً فضل جلالتي الملكين الاخوين فاروق والملك عبد العزيز في انشاء هذه الصلات ورعايتها .

اما صلات المملكة السعودية بالبلاد العربية الاخرى فصلات مودة وحسن جوار ولا يألو جلالة الملك عبد العزيز جهداً في المحافظة على دوامها بكل الوسائل .

رحلات علمية

س — هل قمتم برحلات علمية مدة مقامكم في منصبكم هذا .

ج — لما ذهبت الى الرياض في العام الماضي لمقابلة جلالة الملك عبد العزيز، عدت من الرياض الى مكة بالسيارة، فقطعت نحو الف كيلو في نجد والحجاز، ومررت بمواضع تاريخية وأماكن معروفة في الادب العربي، وكتبت عنها ما اتسع له الوقت، وكذلك ذهبت من جدة الى المدينة مرات، ومن ينبع الى الوجه في شمال الحجاز والى الطائف، وفي كل هذه الاماكن ذكريات تاريخية وأدبية كانت موضع درس، وقد كتبت فصولا عنها سأنشرها في الطبعة الثانية من كتاب الرحلات .

ولا يسأل المتجول في الجزيرة عن نبات او شجر الا سمع اسمه القديم الذي يعرفه في كتب اللغة والادب .

وقد اقترحت على المجمع اللغوي ان يرسل بعثة نباتية الى الجزيرة العربية لتسجيل هذه الاسماء، والاستغناء بها عن الترجمة .

« جريدة الاساس المصرية »



٢٥ آب ١٩٤٩ – صرح المستر فرايزر رئيس الوزارة النيوزلندية ان حكومته ستمنع الشيوعيين في بلادها من الوصول الى اية وظيفة تمس سلامة الدولة .

– اذاع نوري السعيد بيانًا بالاسكندرية جاء فيه : انه يعجب ويستنكر ما يشاع عن ان العراق يؤيد سوريا الكبرى او الهلال الخصيب، وان هدف العراق هو الوحدة التامة الشاملة ، وان لا يكون سببًا في اضعاف الكيان السياسي لاي بلد .

٢٧ – اصدرت وزارة الخارجية الفرنسية بيانًا اكدت فيه وجوب تمثيل فرنسا تمثيلًا تامًا في المنظمة المختصة بشئون الدفاع في ميثاق الاتلنتيك وضرورة تسليح الولايات المتحدة لفرنسا على الفور لكي تتمكن من القيام بالواجبات المطلوبة منها .

٢٩ – صدر بلاغ حربي يوناني ان القوات الحكومية اتمت احتلال سلسلة جبال غراموس الرئيسية وشرعت تزحف جنوبًا .

٣٠ – تجري فوق اواسط نروج مناورات جوية واسعة يشترك فيها سلاح الطيران البريطاني وتدوم المناورات ستة ايام .

– حكمت محكمة براغ على ٦ بالاعدام لحساب الدول الغربية .

٣١ – اعلنت المصادر العسكرية الرسمية في طهران ان طوابير المشاة الآلية الكبيرة قد زحفت نحو الحدود الايرانية الشمالية التي يبلغ طولها نحو ١٥٠٠ ميل لمجابهة اكبر خطر يهددها من القوات السوفياتية . وتتخوف الحكومة الايرانية الآن من ان الخطر الكبير الكامن على الحدود قد اصبح في حالة حرجة جدا اكثر مما يعتقد .

– ابحر ارنست بيفن وزير خارجية بريطانيا وستافرد كريبس وزير ماليتها الى وشنطن حيث يعقد المؤتمر المالي الثلاثي .

اول ايلول ١٩٤٩ – اعلن الرئيس ترومن بمناسبة الذكرى العاشرة لاندلاع نيران الحرب انه يرجو ان ينتهي حرب الاعصاب الذي يشنه الشيوعيون ضد الديمقراطيات بالطرق السلمية .

٢ – اعلنت وزارة المالية الاميركية ان الموازنة وقعت في عجز مليارى دولار . واذا كان المعدل سيتابع حتى آخر السنة الحالية فتقع الخزينة بعجز ١٢ مليار دولار .

٣ – سلمت المفوضية الايطالية مذكرة للخارجية العراقية بشأن مستعمرات ايطاليا بانها تحبذ الحكم الذاتي لكل من ليبيا وارتيريا وستساعد الدول العربية في هذا لقاء تعضيد مطلبها في الاشراف على الصومال .

٤ – ختم وكلاء وزراء الخارجية اجتماعهم في محاولة اعداد صيغة معاهدة الصلح النمساوية دون ان يتمكنوا من الوصول الى اتفاق نهائي .

– تحدث الماريشال تيتو الى جماعة من الاميركيين فقال ان خلافه مع ستالين يعود الى خمس سنوات ولكنه لا يعتقد بان هذا الخلاف سيؤدي الى نشوب حرب .

٥ – وصل الملك عبدالله الى ميناء لاكورونا في زيارته لاسبانيا وقد استقبله الجنرال فرانكو على الميناء، واقيمت له معالم الزينة والاستقبالات .

٦ – برأت المحكمة العسكرية الحليفة المنعقدة في طوكيو ساحة الاميرال تايورا القائد العام للاسطول الياباني عند نهاية الحرب من التهم التي نسبت اليه .

٧ – وصل الى لندن الامير منصور بن عبد العزيز وزير الدفاع في المملكة العربية السعودية وسيقيم في لندن عدة ايام يجري فيها محادثات مهمة .

٨ – وافق بنك الاستيراد والتصدير على منح يوغسلافيا قرضًا قدره عشرون مليون دولار . وقد تخصص بريطانيا ليوغسلافيا قرضًا بنحو ستة ملايين استرلينية .

١٠ – نشرت الحكومة المجرية مذكرة الاتهام ضد راجيك وزير الخارجية الذي اعتقل في الشهر الماضي قد جاء فيها انه سيقدم الى المحاكمة مع سبعة من الزعماء الشيوعيين بينهم رئيس اركان حرب الجيش بتهمة الخيانة العظمى والتجسس لحساب الولايات المتحدة ويوغوسلافيا .

١٢ – انتخب تيودور هوس رئيسًا للجمهورية الالمانية الاتحادية في الدورة الثانية من الاقتراع بـ ٤٢٦ صوتًا من اصل ٨٠٠ .

– انتهت المحادثات المالية بشأن الدولار بين بريطانيا وكندا والولايات المتحدة وقد اعلن البلاغ النهائي تشكيل مجلس اقتصادي دائم في واشنطون يشترك فيه مندوبون عن الدول الثلاث .

١٤ – اجتمع اتشيسون ناظر الخارجية الاميركية وبيفن وزير الخارجية البريطانية لبحث الامور التي تهم بلديهما في الشرقين الاقصى والاوسط وقد صدر بلاغ جاء فيه : جرى تبادل الاراء حول اسباب المشاكل مما اظهر اتفاق الرأي بين البلدين فيما يتعلق بالاهداف والسياسة التي يجب اتباعها .

١٤ – عادت المعارك بين القوات الهولاندية والهندونيسية في جاوة وسومطرا وبورنيو .

١٦ – اصدرت الحكومة البريطانية بيانًا خولت فيه الامير ادريس السنوسي تأليف حكومة فيها وستتولى بريطانيا الاشراف على شؤون برقة الخارجية والتجارية والعسكرية وما يتعلق بالطيران والعملة .

– شرع الشعب الالماني في اقامة المظاهرات امام بناية البرلمان الجديد مطالبًا مقابلة الرئيس هوس للاحتجاج على مصادرة الجيوش الحليفة البيوت الالمانية .

١٨ – اعلنت الحكومة البريطانية تخفيض الجنيه الاسترليني بنسبة نحو ٣٠ بالمئة من قيمته الحالية .

١٩ – خفضت عدة حكومات تماثلها وبينها فرنسا التي خفضت الفرنك ٢٠ بالمئة .

٢٠ – تألفت اول حكومة للجمهورية الاتحادية في غربي المانيا . وصرح الدكتور اديناور في البيان الوزاري عند افتتاح البرلمان الاتحادي بانه يأمل الا يتخذ المفوضون الاعلون من الحلفاء اي تدبير في السياسة الخارجية الالمانية دون استشارة الحكومة الاتحادية .

٢١ – دعا مندوب سوريا لدى هيئة الامم المتحدة الاستاذ فايز الخوري الدول الصغرى لتأليف جبهة ثالثة لايجاد التوازن بين الجبهتين الاميركية والروسية .

٢٣ – صرح المستر بيفن في واشنطن قائلًا : اعتبر التفاهم بين مصر وبريطانيا شرطًا لا بد منه للسلام والاستقرار في الشرق الاوسط .

مطابع صادر وريحاني – تلفون ٦٢ – ٦٨